فصول العشق

رواية

كاتيا الكردي

حقوق الملكية

© Copyright 2020 Katia Alkurdi
All Rights Reserved.
Protected with www.protectmywork.com,
Reference Number: 10277310520S005

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذاً مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف

رولا الكردي

الإهداء

إلى أغلى شيء في عالمي ....

إلى عائلتي التي لا مكان آمن لي في هذه الحياة سواها، والتي أعود إليها دائماً مهما طال البعاد والفراق.

إلى الجوهرتين الغاليتين أمي وأبي، اللذان أعطياني الحرية لاكتشف العالم، وساعداني على التحليق بعيداً وراء أمنياتي وفتحا لي طريق الأحلام.

إلى أخوتي الحنونين والمليئين بالحبّ، سندي وملجأي ورفاق دربي، والذين بسببهم أرى العالم مسكناً للحبّ.

إلى تيم ونايا وغسان وآخر العنقود ليان، المليئين بالحياة والأحلام والبراءة فلتكن حياتكم القادمة مثلكم سعيدة ومفعمة بالحبّ ولا تتلطخ بالكره والبشاعة.

إلى كل عاشق يؤمن بأنّ الحبّ يغير كل شيء في هذا الكون وأنّه رغم الألم والأحزان يبقى هناك دائماً فسحة للحلم والأمل في داخلنا.

أهدي هذا الكتاب إلى .....

أنا عاجزة الآن عن إيجاد الكلمة المناسبة لهذا الفراغ القاتل المحدّق بي كحدّ مقصلة، لذلك إن قرأت هذه الرواية أتركه لك لتملأه بما تراه.

فصول العشق

حياتنا هي دوران لا نهائي في فلك العشق، كراقص صوفي يحلّق في رحلة معراجه نحو شمس وجوده.

حياتنا هي أمواج متضاربة ترسم أقدارنا على شواطئ الحياة، فتارة تزهر أشجار الشغف في القلوب الحالمة، وتتألّق الآمال كورود بألوان قوس قزح، وتارة أخرى تتساقط الأوراق المصفرّة في زمن انكسار الأحلام، وتحمل رياح الحنين أشواقنا إلى أرض الأمنيات.

تارة تسطع شمس عشقنا في صيف السعادة وتضيء بدفئها قناديل السهر في مواسم الأفراح، وتارة أخرى يغزونا صقيعها فنرتدي وشاح الخيبة ونعتكف في محراب العشق، وهناك تعلو صلواتنا ابتهالاً كترانيم حزينة على قيثارة الأمل، تعلو تضرعاً كي يهطل مطر الشفاء وتنمو براعم العشق مجدداً تحت ثلوج الوحدة.

حياتنا هي أمواج هائجة فهل نستسلم لقسوتها ونتركها تغرقنا في قاع النسيان، أم نعاندها ونحلق نحو الأحلام كطائر سنونو يهاجر بعيداً عن موسم الأحزان؟

(1)

مقدر ومكتوب

عندما التقينا كان واضحاً أنّني لم أحبّك من دقّة القلب الأولى أو نظرة العين الأولى أو حتى رعشة اليد الأولى، لقد أحببتك في عمر آخر، في قدر كُتبَ منذ الأزل في رواية الحياة.

بدأ ذلك الصباح كأيّ صباح آخر، لا شيء يشير لحدوث شيء استثنائي، لكنّ تغييراً بسيطاً في خطط الحياة قلب الأمور رأساً على عقب، وأهدى توليب يوماً مدهشاً ومسروقاً من شبح الحزن، يوماً غَربت فيه حياة عاشتها في وحشة وانتظار، وأشرقت أخرى مليئة بالبهجة والأماني، يوماً ماج فيه قلبها في بحر العشق، وبدأت رحلتها الجديدة فيه بين مدٍ وجزر، يوماً سطع فيه نجمها في سماء الكون وتألّق كجوهرة ثمينة. صدق من قال الهدوء يسبق العاصفة.

ملأ صوت المنبه الغرفة، وصوت من الخارج نادى **توليب هيّا استيقظي.**

فتحت توليب عينيها بكسل، وأطفأت المنبه ثم عادت للنوم.

بعد دقائق قليلة فُتح باب الغرفة، ودخلت امرأة لطيفة في عقدها الخامس، سحبّت الغطاء عنها بلطف، ثم قالت: هيا استيقظي أيّتها الكسولة.

- عمّتي أرجوك، دعيني أنام قليلاً بعد.
- ستتأخرين على الجامعة. هيا استيقظي لتناول الطعام قبل الذهاب.
- حسناً أنا قادمة. أعلم أنّك لن تتركيني قبل أن أستيقظ.

جلست توليب لتناول الطعام مع عمّتها وأثناء ذلك رنّ هاتفها معلناً عن قدوم مكالمة، كانت المتصلة هي صديقتها ألين، تُخبرها بأنّها آتية لاصطحابها إلى الجامعة.

كانت ألين امرأة مهووسة بالرياضة، تنهض كلّ صباح للركض على الشاطئ وتعتني بجسدها بشكل كبير، وبحكم جمالها الأخّاذ لا تخلو حياتها من المعجبين المنتظرين فرصة للحصول على ودّها، أمّا توليب فهي امرأة عمليّة وبسيطة، وبسبب خجلها وانطوائها لم يكن لديها العديد من المعجبين كصديقتها.

عندما وصلت ألين لمنزل توليب دعتها لشرب فنجان من القهوة، وعندما جلسوا في غرفة استقبال الضيوف قالت مخاطبة عمّة توليب

- خالتي فريدة، أرجوك أقنعيها بالذهاب معي إلى الحفلة اليوم.
- توليب اخرجي واستمتعي قليلاً.
- عمّتي تعرفين أنّني لا أحبّ الأماكن المزدحمة والحفلات.

مرة أخرى تدخلت ألين وقالت لتوليب: أرجوك اذهبي معي إلى هذه الحفلة فقط، فلا أحد يستطيع مرافقتي اليوم وأنا لا أريد الذهاب وحدي.

لم تكن توليب ترغب بالذهاب لكنّها رضخت أخيراً تحت إصرار صديقتها، وبعد انتهاء محاضرة الصّباح في الجامعة توجّهتا إلى السّوق، وهناك اشترت ألين ثوباً ذهبياً بلون خصلات شعرها الحريري، يبرز جمال جسدها الممشوق والمصبوغ بأشعة الشمس الحارقة، أمّا هي فلم تكن ترغب في التسوّق لكنّ إلحاح صديقتها جعلها ترضخ في النهاية.

كان من النادر أن ترى توليب وهي تضع مساحيق التجميل بعكس ألين التي لا تهمل أبداً جلسات الاعتناء بالبشرة والشعر، ولا تخرج أبداً إلاّ وهي بكامل أناقتها، لكنّها في ذلك اليوم تركت نفسها للخبيرة بهذا العالم وحسناً فعلت فقد أزالت الستار عن جانبٍ خفيّ في شخصيتها ظهر للمرة الأولى في حياتها.

كان القدر يسوق خطواتها خطوة وراء خطوة تماماً كما خطّط لها، لكنّها كانت غافلة عن ذلك.

وصلتا إلى الحفلة، وكالعادة نجحت ألين في جعل جميع العيون تلاحقها، عيون النساء اللواتي تتمنّين جمالها الأخّاذ وجسدها الممشوق، وعيون الرجال الذين يتسابقون للحصول على ابتسامة وكلمة من شفتيها.

وقفت توليب جانباً تراقب ألين وهي تتنقّل بسعادة بين المدعوين، وفكّرت كم أنّها مختلفة عنها، فهي لم تكن يوماً فتاةً اجتماعية، وخلال سنوات دراستها كان عدد أصدقائها محدود، والمعلمات يشتكين دائماً من انعزالها عن الجميع، وعدم مشاركتها بالأنشطة المدرسيّة الجماعية. وكي يمضي الوقت بسرعة قررت الخروج إلى مكانٍ أقلّ ازدحاماً وصخباً، ولم تعلم أنّ هذا القرار سيقلب حياتها وسيكون المفتاح لعالم لم تدخل إليه سابقاً.

خرجت وأثناء بحثها عن مكان لتجلس فيه لمحت مقعداً فارغاً من بعيد ولدى اقترابها منه تفاجأت بوجود رجلٍ هناك، بدا هو الآخر متفاجئاً لرؤية هذا الجسد النحيل يقترب منه، وفي اللحظة التي استدارت فيها لتعود أدراجها سمعته يقول: سأكون سعيداً إذا شاركتني هذه الليلة الربيعية الجميلة.

- لا أظنك تودّ إفساد ليلة ساحرة كهذه بمشاركتها مع الآخرين.
- يصبح المكان أكثر عبقاً وجمالاً بوجودك.

بين صخب الموسيقا في الداخل وهدوء الأجواء في الخارج، كان لها موعداً مع هذا الغريب، بضع نظرات قادت لبضع خطوات، وفجأة لم تشعر بنفسها إلاّ وهي تتابع سيرها نحوه، ولدى وصولها قربه لاحظت على الفور سحره الغامض وابتسامته الواعدة بفرح طال انتظاره.

مدّت له يدها بالسّلام فضغط بلطف على أصابعها الطويلة والنحيلة، وقال لها بصوت ودود ودافئ : أنا فرات وأنت؟.

شعرت بدفء تلك اليد وصمتت لبرهة، فقد كانت مأخوذة بتلك العينين المغريتين، لكن عندما رأت نظراته المتسائلة أجابته: أنا توليب.

- لماذا تهربين بعيداً عن الصخب؟
- لنقل أنّني كالسرخس أحبّ العيش في الظلّ، لديك اسم جميل يا سيّد فرات.
- وأنتِ لديك حضور آسرٌ. يمكنك مناداتي فرات فقط لا داعي للسيّد، هل تمانعين مناداتك بتوليب فقط؟
- إطلاقاً.

- إنّها ليلةٌ ساحرةٌ فعلاً لكنّ هذا البدر المضاء والنجوم البرّاقة لم تستطع سرقة البريق من عينيك الرائعتين.

شعرت بتفاح خدّيها المزين بالنمش يحمرّ خجلاً من وقع كلماته. عادة لا تشعر بالاتيارح عندما يقوم رجل بمغازلتها، لكنّ مع هذا الرجل شعرت براحة غريبة، لا تدري ما الذي جذبها إليه بالضبط؟ أهو صوته الذي يوحي بالأمان والثقة أم هي عينيه المليئتين بالدفء.

كان لحضوره وقع خاص على روحها، فهو يجذبها كقطعة معدن عاجزة عن مقاومة سطوة المغناطيس المقترب منها. شعور غريب انتابها بأنّها التقته من قبل، لكنّها لا تذكر أين.

فرات أيضاً خاض ذلك الصباح نقاشاً آخرَ مع صديقه آدم، ولولا إلحاحه لما حضر هذه الحفلة.

آدم هو رجل مشهور بحبّه للنساء، وقد أوقع العديد منهنّ في شباكه بفضل عضلاته المفتولة وعيونه التي تشبه زرقة السماء، وطبعاً مولعاً بحضور هذه الحفلات ولا يفوّتها أبداً، أمّا بالنسبة له فقد كانت هذه الحفلة حفلة عادية ككل الحفلات، لكنّ دخول توليب المفاجئ أَسَرَه وحوّلها إلى أجمل حدث في العام.

كان واقفاً يتبادل أطراف الحديث مع صديقه عندما رأى امرأتين تدخلان معاً. كانت المرأة الأولى ترتدي ثوباً لامعاً كأشعة الشمس الساطعة في يوم صيفي، بينما الأخرى ترتدي ثوباً من نار متوهجة يكشف عن جسد بلون البتلات البيضاء. لم يعلم ما الذي جذبه في تلك المرأة بالضبط؟ أهو الثوب الذي خرج من ألسنة اللهب، أم الشعر المموج الذي انسدل كشلال من الورود الحمراء على ظهرها العاري. كان بها مزيج من الإثارة والغموض، ولوهلة لم يعلم بماذا يصفها؟ أنار متوهجة هي أم وردة متفتحة بلون القلب.

بدت ساحرة ومن اللحظة الأولى لدخولها أسرته بحضورها الفاتن، كانت كنور أضاء عتمة قلبه فهو لأول مرة في حياته يرى امرأة توقظ في روحه الرغبة بالحياة.

وقف يتأملها بإعجاب وحيرة، ولم يسمع آدم الذي نادى عليه أكثر من مرة. وبعد عدة محاولات استيقظ من هذا الحلم أخيراً وقال له: سأخرج لبعض الوقت، أشعر بالضيق هنا.

علّق آدم حسناً ولكن لا تقضي الليلة كلها في الخارج، هناك العديد من النساء الجميلات هنا وحتماً لا تريد تفويت هذه الفرصة.

خرج ولم يعلم أنّ الوردة ستجد طريقها إلى الماء، وأنّ جذورها العطشى ستقودها لا محالة إلى مكان تواجد الحياة. المرأة التي هرب من سحرها في الداخل لاحقته، وها هي الآن تجلس قربه وتحادثه.

كان واضحاً عمق الانجذاب بينهما، فقد تحادثا مطولاً ولم يشعرا بمرور الوقت. الشيء المشترك الذي جمع بينهما هو أنّهما غريبان، قَدِما إلى هذه المدينة لعيش حياةٍ أخرى، ولم يعلما أنّ خيوط القدر ستتقاطع بين حياتهما، وأنّ ما يهرب منه الإنسان يجدّه في النهاية.

فجأةً توقفت الأصوات الصاخبة في الداخل، واستبدلت بموسيقا أكثر هدوءاً تعكس بطريقة أو بأخرى ما يجري بينهما، وكأنّ النهر الصاخب والمتدفق بقوة وعنف، هدأ فجأة وأصبح يجري بسلاسة.

وقف وهو يقول: هل تشاركيني لحظة السعادة هذه برقصة نسرقها من الحياة؟.

لم تعلم بماذا عليها أن تجيب، فإن قالت لا ستضعه في موقف محرج، وإن قالت نعم ستضع نفسها في موقف محرج، فهي لا تجيد الرقص.

أخيراً قررت الردّ على سؤاله بجواب مناسب لكليهما.

- من كل قلبي لكنّني لست خبيرة.

- اتبَعي إحساسك فقط.

أمسك بيدها وقادها إلى الداخل من دون أن يترك لها أيّ مجال للرفض، وهناك أحاط خصرها النحيل بذراعه القوي، ووضع يده الأخرى فوق يدها المستقرة برقة على كتفه.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها لحظة إحاطته لظهرها العاري وتسارعت أنفاسها لاقترابه منها بهذا الشكل.

قال لها وهو ينظر بعمق في غابات عينيها الساحرتين

- كل البدايات رغم صعوبتها جميلة. لكنّنا لا ندرك ذلك إلا لاحقاً.
- أنا لست شجاعة.
- الشجاعة لا تعني عدم الخوف بل إقدامنا على فعل الشيء رغم الخوف.

لم يكن خوفها من الرقص فقط بل من قربها منه بهذا الشكل، فقد كان رجلاً مربكاً بكلامه ولمساته، وقد شعرت معه وكأنّها سفينة عالقة في بحر هائج من الأحاسيس والعواطف الجّياشة وتبحث بيأس عن برٍ للأمان تلجأ إليه.

بعد مرور بعض الوقت، شاهدتها ألين وهي ترقص، ولم تصدق بأنّ هناك رجلاً أقنعها بالرقص، فاقتربت منهما وقالت لها: منذ متى ترقصين!!.

توقفا عن الرقص ومدّ فرات يده بالسّلام وهو يعرّف عن نفسه، وكذلك فعلت هي.

شكرته توليب على الرقصة ثم سحبّتها من يدها وابتعدتا. كان فضول ألين كبيراً لمعرفة ما جرى معها لذلك بادرت بسؤالها

- من هو فرات؟ لماذا لم تحدثيني عنه من قبل؟
- لقد تعارفنا اليوم.

قالت ألين وهي تبتسم ابتسامة خبيثة يبدو رجلاً لطيفاً.

- أعلم بما تفكرين لكنّك مخطئة.
- هيّا نذهب وفي الطريق نتحدث.

سمعت توليب قبل مغادرتهما صوتاً يناديها، فتوقفت واستدارت نحو مصدر الصوت، وعندها رأت فرات يقترب منها قائلاً هل نلتقي مجدداً؟.

أجابت بعد قليل من التردد: لماذا لا تدع ذلك للقدر؟ أجمل الأشياء هي التي تحدث صدفة.

لم يرغب فرات بترك لقائهما القادم للقدر لكنّه كان مجبراً على الاستسلام لرغبتها، فابتسم لها وغادر بينما وقفت هي تراقبه وهو يبتعد.

قال آدم عندما رآه يتقدم نحوه، أين الشّابة التي كانت برفقتك؟

- غادرت الحفلة.
- لقد غادرت باكراً !!! من هي لم أرها سابقاً؟
- إنّها..... الوردة المشتعلة.

شعرت ألين بأنّ صديقتها معجبة بهذا الرجل لكنّها لا تريد الاعتراف بذلك، لذلك أوصلتها إلى منزلها وتركتها لتكتشف ذلك بنفسها.

دخلت توليب غرفتها وصورة ذلك الغريب لا تفارقها، كانت على مقربة خطيرة منه ورغم خوفها لم تستطع منع نفسها من المقامرة على العشق.

شعرت برائحة جسده ذات الشذى المسكر تحيطها وتتسرّب إليها كرائحة أزهار الغاردينيا في يوم ماطر، فاستسلمت لذلك السحر الآسر وغرقت في حلم جميل بذلك الرجل الذي سيقلب حياتها رأساً على عقب.

(2)

بصيص أمل

أجمل ما في هذه الحياة هو عشق يضيء فوانيس الأحلام بداخلك، عشق تقطع من أجله البحار والمحيطات، عشق يدمّرك، ولا تملك في مواجهته سوى قلب مجنون وبصيص أمل.

مشت توليب باتجاه الطائرة التي انتظرتها لسنين طويلة، سمعت منارات أبراج المراقبة تهذي باسمه، كلّ شيء حولها كان يدفعها نحوه كإبرة بوصلة أتعبها سطحها المائل وتبحث عن أفقيتها في عينيه، تهادت خطواتها كعارضة أزياء في تمرين هادئ، فلا يمكن للسرعة أن تتماشى مع حجم التخيلات التي رسمتها في رأسها.

دخلت إلى الطائرة وجلست بجانب أمّ تهدهد طفلها الرضيع، أخذت تنظر حولها وتتأمل المسافرين بفضول، لاحظت أنّ بعضهم يجلسون كعائلة سعيدة وبعضهم الآخر عشّاق مغرمون، أمّا الوحيدون مثلها فقد كانوا قلّة.

فجأة قالت إحدى المضيفات **على الجميع لطفاً ربط الأحزمة والالتزام بتعليمات الأمان فسوف نقلع الآن.**

ردّدت في سرّها بسخرية " تعليمات الأمان" كيف ذلك وأيّ بعدٍ عنه يشبه عندي السقوط الحر، أنا لا أمان لي إلاّ بقربه.

انطلقت الرحلة بكلّ تلك الأشواق، التي لو تجسّدت كمادة لاحتاج الأمر لأكثر من هذه الطائرة. كانت مشاعرها مختلطة، فهي سعيدة ومتحمّسة لهذه الرحلة، لكنّها في نفس الوقت قلقة ومترقبة لما يخبئ لها القدر.

أرادت أن تنام قليلاً أن تغمض عينيها ولا تفتحهما إلاّ وهي هناك لكنّ النّوم جافاها. أخيراً وبعد انتظار امتدّ لعمر من الألم أعلن القبطان وصولهم إلى المكان الذي رافق أحلامها لسنوات.

كان جسدها منهكاً ومتعباً، ويقوم بإرسال إشاراته إلى العقل للتوقف والراحة، بينما قلبها يحثّه على التقدم والاستعداد لرفع الأدرنالين تماشياً مع كمية الخفقان المتزايد له، ورغم الصراع الكبير بينهما كان واضحاً أيّ الطرفين سيفوز اليوم، فالعقل مشغول بالقلب الذي لم يتوقف عن تخيل السيناريو المرتقب.

نسيت لوهلة إجراءات الوصول، فما تبحث عنه جعلها كطفلة تبيع المناديل على زاوية إشارة المرور ولا تعنيها تغيّر ألوانها، لكنّ رؤية المسافرين وهم يتقدمون إلى المكان المحدّد لختم جوازات السفر ذكرّها بذلك فمشت معهم.

توقفت عند أحد الموظفين وأعطته جواز سفرها، وعندما فتحته أخذ ينقل بصره بينها وبين صورتها في جواز السفر، بدا وكأنّه غير مصدق أنّ تلك الصورة لهذه المرأة الواقفة أمامه الآن. فكرت بينها وبين نفسها هل غيّرني غيابه إلى هذه الدرجة؟ كانت ساذجة من ثقل الشّوق، وبالكاد أوقفت لسانها عن سؤاله إن كان حبيبها ينتظرها في الخارج أم لا، فالطفل يعتقد وبكلّ براءة أنّ الجميع يعرف أمّه.

أعاد لها الموظف جواز سفرها، فحملت أوراقها وتوجهت نحو صالة الانتظار، وفي الطريق إلى هناك تذكّرت أنّها لم تأخذ حقيبتها، ذلك اليوم لم يكن لأمتعتها من متّسع في ذاكرتها، فكل ما فكرت فيه كان هو فقط.

عادت باتجاه المكان المخصّص لجمع الحقائب، وأخذت حقيبتها ثم تابعت سيرها نحو صالة الانتظار. قلبها كان على ثقة بأنّها ستراه، كان يحلم بتلك اللحظة منذ سنوات، لكنّ عقلها كان مليئاً بالاحتمالات.

أخذت تبحث وسط الحشود عن وجه مألوف، كانت عيناها وقلبها وكل خلية فيها تبحث عنه بجنون ولهفة، الدقائق لم تعد تحتوي ستين ثانية بل تحولت لساعات طويلة.

شاهدت بين الحشود فتاة تحمل لافتة وورود وتنتظر بشوق القادمين من البوابة. رؤية هذه الفتاة جعلتها تفكر كم أنّ الحبّ خطير، إنّه كقنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، الحبّ قد يجعل منك أسعد مخلوق في لحظة أو أتعس مخلوق في لحظة أخرى، إنّه مدمّر وقد يكون جنّتك أو جحيمك، مع الحبّ عليك أن تصلّي كي تكون من المحظوظين. كانت تستطيع أن ترى مدى السعادة التي تتدفق منها، فهي مليئة بالشوق ومن الظاهر أنّ من تنتظره هو حبيبها.

تركت هذا المشهد قليلاً وعادت للبحث عن رجل أحلامها، لكنّ صوت الفتاة وهي تصرخ عند رؤية أحد القادمين أعادها إلى ذلك المشهد ثانية. كانت تصرخ كالمجانين من دون اكتراث لمن حولها، فكلّ ما يعنيها هو هذا الشّاب القادم نحوها، وفور وصوله قربها أعطته الورود وعانقته عناقاً حاراً.

هذا المشهد الحميم سرقها من توتّرها وأنساها الانتظار، ولوهلة تمنّت لو أنّها مكان هذا القادم وكان فرات بانتظارها مع الورود.

لم تعلم يومها إن كان عليها الإصغاء إلى قلبها الطائش والمجازف، أم إلى عقلها الذي يحاول ردعها وحمايتها من أيّ جرح محتمل.

أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت محادثةً نفسها: بعد دقائق من الآن سيكون الحبّ أملي القادم أو خيبتي، أنا لدي ثقة تامة بالقدر.

بدأ قلبها يطرق بشدّة وصلّت من كلّ قلبها كي يكون حاضراً لدى فتحها لعينيها، وعندما فعلت رأت الفتاة تغادر مع حبيبها وبقيت هي وحيدة بانتظار حدوث المعجزة.

رويداً رويداً بدأت آمالها بالتضاؤل وهي ترى صالة الانتظار تفرغ تدريجياً، انتظرت وانتظرت لكن دون جدوى، لم يأتِ لرؤيتها، كان قلبها عاجزاً عن التصديق بأنّه لم يأتِ، وأنّ هذا الشّوق الذي سكن قلبها لم يسكن قلبه هو أيضاً. الواقع الأليم جعلها تستوعب الحقيقة المرّة، وتصحو من الحلم الجميل الذي رافقها لساعات طويلة. شعرت في تلك اللحظة بألم وفراغ كبيرين وتحطمت آمالها وأحلامها على صخور الخيبة، الصدمة جعلتها غير قادرة على الوقوف أكثر، فجلست على أحد المقاعد لتستعيد القليل من قوتها.

استسلام القلب جعل العقل يعود للعمل، ويتذكّر هذا الجسد الذي أثقله التعب، وعندها استعاد المبادرة واتّخذ القرار الحاسم بالمغادرة.

حملت أمتعتها وخرجت من المطار ثم وقفت على الرصيف بانتظار قدوم إحدى سيّارات الأجرة، وعندما رآها أحد السائقين تقدّم باتّجاهها. وضعت أمتعتها في السّيارة، ثم دخلت وجلست في المقعد الخلفي، فليست في مزاج جيد لتبادل أطراف الحديث مع أيّ أحد، كان عليها وضع مسافة بين ذاتها الحزينة والآخرين كي لا يتسرب حزنها ويغرق من حولها بالكآبة. ابتسمت للسائق ابتسامة باهتة، وهي تعطيه ورقة تحمل اسم الفندق وعنوانه، بادلها هو الآخر الابتسامة وانطلق بها نحو الفندق.

طوال الرحلة كان السائق يسترق النظر إليها بين الحين والآخر، لكنّه لم يرَ سوى جسدٍ هامدٍ، وعيونٍ مليئة بالدموع وجفونٍ منتفخة، وبعد مرور بعض الوقت قرر فتح المذياع ليكسر حاجز الصمت بينهما، فمن الجليّ أنّ هذه السيدة لا ترغب بتبادل أطراف الحديث معه.

كان المذياع في السيارة يتحدث عن مفهوم الأنانّية لدى فرويد، ويؤكد على نظريته في أنّ الإنسان أنانّي بطبعه ويكره الخير لغيره.

فكرّت في قرارة نفسها أعتقد أن فرويد لم يعرف الحبّ يوماً لذلك ظنّ من السهل على الإنسان أن يكتفي بنفسه.

أسندت رأسها على نافذة السيارة من شدّة تعبها، لكن ورغم برودة الطقس لم تستطع أنفاسها أن تنفث أيّ شيء على الزجاج، فقد استهلكت قواها بالتنهيدات المتخمة بالخيبة.

أخيراً توقفت السيارة قرب فندق كبير، وقال لها السائق: هذا هو الفندق الذي تبحثين عنه، أتمنى أن تقضي إجازة سعيدة في اسطنبول.

شكرته على أمنياته الطيبة وتوجهت نحو الفندق، وفور دخولها ألقت التحية على موظف الاستقبال وأتمت الإجراءات بسرعة فقلبها الحزين لم يعد يحتمل وأنوثتها تفرض عليها البكاء.

وصلت إلى الغرفة وقد بدا لها أنّ هذه الرحلة استغرقت دهراً، وفور دخولها أخذت حماماً ساخناً، فقد شعرت أنّ وجودها تحت الماء سيحسّن من حالتها المزاجية، وفور خروجها هاتفت عمّتها. حاولت خلال المحادثة ألاّ تظهر حزنها لكنّها لم تستطع خداعها وعندما سألتها عن السبب ادّعت أنّها متعبة من الرحلة.

لاحقاً شعرت توليب بالتعب يثقل جسدها فاستلقت على السرير، وعندما أغمضت عينيها في محاولة منها لجذب النوم حاصرتها تفاصيل رحلتها كأمواج هائجة تحاصر شخصاً يقاوم الغرق. خيبة أملها من عدم حضوره جعلت دموعها تتساقط وبدأت بعدها بالبكاء المصحوب بالتنهيدات المليئة بالخيبة.

أخيراً بين لوم ونوم انتصر التعب للنوم. نامت لساعات طويلة ومن شدّة تعبها لم تستيقظ إلاّ على رنين الهاتف. لبرهة لم تعِ أين هي، استغرقها بعض الوقت لتذكّر ما حصل وأين هي الآن، حملت الهاتف بتثاقل وحاولت فتح جفنيها اللذين مازالا ينغلقان من شدّة النعاس، وعندما رأت اسمه الظاهر على شاشة الهاتف هرب النعاس فجأة من عينيها، وارتفع الأدرنالين في جسدها.

مجرد رؤية اسمه وبجانبه إشارة تدل على قدوم رسالة جعل قلبها يطرق بشدة. جلست على السرير وقرأت رسالته بشوق وعجلة

كم هو رائع قدومك إلى هذه المدينة أخيراً، من المؤكد أنّ اسطنبول انتظرتك طويلاً. ترى أية هدية ترغبين بالحصول عليها من هذه المدينة؟

كتبت له على الفور

هل من الممكن أن تكون هذه الهدية هي لقائي بالماضي؟

مرّت بضع دقائق قبل وصول الرّد، وفي انتظار إجابته حاولت إبعاد نفسها عن صخب الشوق بالتفكير بشيء آخر كتناول طعام الفطور، فهي لم تأكل أي شيء منذ وصولها إلى اسطنبول، وبعد وصول رسالته عادت لها شهيّتها فطلبت من خدمة الغرف إحضار الفطور إلى غرفتها.

كانت الشوكة وبضع زيتونات كحوار الهارب من المشتاق، تحاكي حالها بشوكة ورؤيته بزيتونة، وهي تدرك أنّ وجودها لم يكن يوماً بدونه. تناولت بضع لقيمات وكل ما يشغلها فرات فقط.

رنّ الهاتف مرة أخرى وأخرجها من صراع أفكارها، فركضت نحوه وفتحت الرسالة "**وهل من الممكن ألاّ يكون؟ نلتقي غداً صباحاً.**" ولدى قراءة رسالته شعرت فجأة بخيبة أمل فقد افترضت أنّ شوقها إليه هو مثل شوقه إليها، وأنّه لن يستطيع الانتظار وقتاً أطول لرؤيتها.

وضعت الهاتف جانباً وخرجت إلى الشرفة حاملة فنجان قهوتها، كانت أفكارها تتصارع ولم تلاحظ أنّ قهوتها بردت دون أن ترتشف منها شيئاً، كانت فقط تقوم بتدوير الفنجان بين يديها فلم يكن له من تركيزها نصيب.

ذلك اليوم تحولت إلى طفل صغير يحجم عن الطعام في ليلة العيد ترقباً لما ينتظره في الغد من مفاجآت فهو يعلم بأنّه سيكون مليئاً بالأطعمة الشهيّة.

(3)

صُدفة أم خَيار

كان لقاءً مدهشاً هارباً من إحدى روايات العشق، لقاءً ضُرب في مكان ما بين الواقع والخيال، هناك حيث تحدث المعجزات ويضيء الحبّ وجهنا الحقيقي المنطفئ.

مرّت الأيّام وخيال تلك المرأة التي اقتحمت عالمه صدفة، في ليلة ربيعية مليئة بالشغف، لم يفارق عقله ووجدانه. كان يحلم بلقائها والسفر مجدداً في غابات عينيها الواعدة بالعشق، لكنّها تركت هذا الحلم رهناً بالقدر.

كانت تولي اهتماماً كبيراً لموضوع القدر، وتترك نفسها لأمواج الكون تأخذها أينما مضت، ولذلك كان لقاؤه بها مستحيلاً دون تدخل القدر، ولكي يعطي نفسه أملاً بلقاء يروي عطش قلبه لها، ذهب مع آدم إلى جميع الحفلات في محاولة منه لرشوة القدر، علّه يحنّ عليه ويمنحه مبتغاه، لكنّه عاد دائماً خال الوفاض. أخيراً ومع تضاؤل آماله في رؤيتها مجدداً، قرّر الإنصات إلى عقله واتّباع الأساليب المنطقية لإيجادها.

كان عليه البدء من مكان ما، ولأنّها تدرس في قسم التصوير في جامعة UTS كما أخبرته في لقائهما الأول، فكّر أنّ هذا المكان سيكون البداية الأنسب للبحث عنها، ولذلك طلب من صديقه آدم مساعدته للحصول على بعض المعلومات فهو لديه علاقات واسعة ومعارف كثيرة. أخيراً تمكن صديقه من جمع بعض الأمور، وبعدها أخذ فرات يتردد على الجامعة التي تدرس فيها. ذهب مرّة، مرتين، ثلاثة، لكن دون جدوى، وفي المرة الرابعة وبينما كان في طريقه إلى المغادرة يائساً ومحبطاً، تفاجأ وهو يراها تتقدم نحوه كما في اليوم الأول لتعارفهما.

كانت هذه كلمة القدر مقابل كلمته، فطوال الوقت الذي بحث عنها بجدّ عانده القدر، وفي اللحظة التي استسلم فيها وفقد أمله بلقائها ظهرت أمامه. بدت مختلفة عن المرأة التي رآها في الحفلة، فاليوم ترتدي سروالاً من الجينز وقميصاً أبيض ولا تضع مساحيق التجميل، لكنّها وبلا شك ماتزال لديها تلك الجاذبية الغامضة. كانت توليب هي النغمة الموسيقية الناقصة التي تكتمل بها سيمفونية حياته والضوء الذي ينير أعماق روحه المنطفئة.

تفاجأت هي أيضاً لرؤيته أمامها ولم تصدّق أنّه نفس الرجل الذي التقته في الحفلة. كانت النظّارة الشمسية تخفي عينيه وتحطيها بالشك، لكن عندما نزعها، تأكدت أنّ تلك النظرات الفاتنة والخلاّبة هي لذات الرجل الذي أسرها وسرق النوم من عينيها لأيّام.

بدا مختلفاً في هذا اليوم فقد ارتدى سروالاً من الجينز وقميصاً أزرق، لكنّه بلا شك لم يفقد شيئاً من وسامته، فأيّ شيء يرتديه يبدو عليه رائعاً بفضل جسده الرشيق وقامته المديدة.

كان قرار توليب بترك لقائهما القادم رهناً بالقدر خوفاً من السعادة التي تشعر بها وهو بقربها، والتي لفرط ما انتظرتها لم تصدق أنّها أصبحت حقيقة، وتجلّت في رجل رائع كهذا الرجل، كانت من السذاجة لتعتقد أنّها قادرة على مراوغة الحياة، ولم تعلم أنّ لا شيء يقف في وجه القلوب المتعطشة للعشق.

وصل فرات قربها وسَرَحَ مجدداً في غابات عينيها الخضراء، فقد كان بهما بريق يشدّه ويأسره، ولم يستيقظ إلاّ على صوتها وهي تقول له: ألم أقل لك أن تدع لقائنا القادم للقدر، انظر لقد تكفّل الكون بلقائنا مجدداً.

- عندما نريد شيئاً ما بشّدة، فإنّ الكون يعيد ترتيب نفسه من أجلنا.

- ماذا تفعل هنا؟ ألم تقل أنّك تدرس في جامعة سيدني أم أنني مخطئة؟.
- هذا صحيح. لقد أتيت لزيارة صديق لي يدرس هنا، لكنّني سأكون مسروراً إن تشاركنا حوارً وقهوة.

ابتسمت لهذه الدعوة الجميلة وغمرت عينيه المنتظرتين جوابها بشوق وترقب بنظرات حنونة، ثم قالت له بصوت دافئ ومليء بالسعادة.

- حسناً دعنا نذهب للمرفأ.

مشيا معاً باتجاه منطقة الدارلينغ هاربر، فالمسافة لم تكن ببعيدة بين الجامعة والمرفأ. دخلا هناك إلى أحد المقاهي وجلسا يحتسيان القهوة في مكان مطلّ على البحر.

كانت تتجنب النظر إلى عينيه فحضوره الآسر أربكها، بينما هو أخذ يتأملها بفضول وحيرة، وكأنّها لغز كبير عاجز عن حلّه.

سألها فجأة: من أنت حقاً أيتها الوردة؟

- أنا كتاب نصفه مفتوح ونصفه الآخر مغلق.
- في أيّ أرض أزهرت؟
- في بلد الياسمين.
- وماذا أتى بك إلى هذه المدينة؟.

- قدر حزين، وأمل في حياة جديدة.
- أهو الحبّ من أحزنك؟.
- يقول جلال الدين الرومي **" مهمتك هي عدم السعي وراء الحبّ، بل أن تسعى وتجد الحواجز التي بنيت بينك وبينه"** مشكلتي أنّني لم أفهم هذا إلاّ لاحقاً، لنقل ما حدث وقتها لم يكن مقدراً.
- لم أر في حياتي شخصاً قدرياً إلى هذه الدرجة، لماذا لديك هذه الثقة العمياء بالقدر؟.
- انظر إلى حياتك وتأمّلها ثم أجبني، كم من الأشياء تستطيع تغييرها؟ اسمك، شكلك، عائلتك، حتى عندما تحبّ هل أنت من تختار؟ لماذا إذاً تشعر بالحبّ لشخص دون آخر؟ ولماذا لا تستطيع جعل شخص ما يحبّك مهما كنت رجلاً ساحراً؟.
- أنت محقة هناك أشياء لا يمكن تغييرها، لكنّنا لا يجب أن نترك حياتنا بالكامل للقدر، فإن كنّا تعساء مثلاً فهذا ليس قدرنا، ولا يجب أن نستسلم له لأنّنا نستطيع تغيير الظروف لتغيير النتيجة. في النّهاية على الإنسان امتلاك الشجاعة لتغيير مساره عندما يتوجب عليه ذلك.
- وأنت ما الذي أتى بك إلى هذه المدينة؟

لم تعلم بأنّه هو الآخر أتى إلى هذه المدينة هرباً من قدر مؤلم، قدر حاول مراراً الهرب منه.

مولد فرات لم يكن حدثاً سعيداً كباقي الأطفال، فيوم ولد فقدوا أخاه الأكبر. يومها أعطته جدّته إلى أمّه وهي تقول: لقد أخذ الله منك ابناً وأعطاك آخر فلا تحزني واشكري الله على سلامته، سنسميه فرات. حُكم عليه يومها ليس فقط أن يحمل اسم أخيه بل أن يكون تعويضاً له أيضاً لدى أمه، ورغم أنّها رُزقت بطفلين آخرين بعده، إلاّ أنّه بقي دائماً الأقرب لها، أمّا أباه فقد كان رجلاً عصبي المزاج ولا يستطيع أيّ أحد الوقوف في وجهه، وخلال نشأته شهد فرات مراراً نوبات الغضب تلك والمعاناة التي عاشتها أمه بسبب ذلك، ثم بعد طلاق والديه كبر قبل الأوان، وأصبح مسؤولاً عن أمّه وأخوته الصغار. كان الابن المطيع الذي لا يرفض أيّ طلب لأمّه، وحتى عندما اختارت له حياته وكيف عليه أن يعيشها لم يعترض، فقد ظنّ أنّه سيتأقلم مع قدر كتب له، لكنّه اكتشف خطأه بعد فوات الأوان.

مرّت السنين وهو يشعر كالعصفور السجين، تزول قواه تدريجياً كلّما حاول تحرير نفسه. بصيص أمل ظهر لديه عندما أتت فكرة السفر، كان يائساً وكالغريق الذي يتمسّك بقشّة تمسّك بهذا السفر، بدأ بكل التحضيرات اللازمة من دون إخبار أحد، وعندما أصبح كل شيء جاهزاً استخدم ورقة

الضغط التي بحوزته وأقنع أمّه. لم يرد يومها أن يضّطر لاستخدام هذا الأسلوب معها، لكنّها لم تترك له مجالاً آخر.

أخيراً وبعد سنوات من العذاب أعتقته الحياة، وقادت خطواته نحو قدر آخر كان بانتظاره. هل كان بانتظار هذا القدر ليحرره من عذابه أم أنّ هذا القدر هو من كان بانتظاره لا يعلم ذلك.

لاحظ بأنّ ذهنه شرد وهي ماتزال تنتظر إجابته فقال لها: بناء على نظريتك أتى بي قدري إلى هذه المدينة.

- وهل هو قدر حزين أيضاً؟
- قدر مؤلم.
- هل تعيش وحدك أم مع عائلتك؟
- أعيش وحدي منذ سنوات، لكنّني لا أشعر بالوحدة.
- إن كنت بعيداً عن عائلتك ألا يعني هذا أنك وحيد؟.
- هناك كثير من الأشخاص يعيشون مع عائلاتهم، لكنّهم وحدهم من يدركون مدى وحدتهم.
- وهل أنت سعيد بقرار الابتعاد هذا؟

- سؤال بسيط وإجابته معقدة، وكي أجيب عليه يجب أن أسألك أولاً ما هو تعريفك للسعادة؟.
- السعادة تأتي بالرضا بما منحك إيّاه الله، وقد تكون السعادة لبعض الناس في المال، والبعض الآخر في الحبّ، أو في المتع، أو في الحصول على أطفال وعائلة، لكن برأيي السعادة هي بالرضا لأنّك عندما ترضا بما تملكه مهما كان صغيراً، ستشعر بالسعادة ولن تنظر بحزن وحسرة إلى ما حرمت منه، وأنت كيف ترى السعادة؟
- قرأت كتباً كثيرة حول هذا الموضوع، لكنّ الرأي الذي أميل إليه هو في كتاب بعنوان " أن تكون نفسك " لشريف عرفة.

صمت قليلاً وهو يرتشف قهوته ثم تابع قائلاً

- يقول شريف عرفة في كتابه **" لا يوجد في الحياة شخص يعيش بسعادة في جميع الأوقات، فالشخص السعيد يشعر بنفس المشاعر السلبية التي يشعر بها الشخص التعيس، لكنّه يتعافى بسرعة ويستمر بالحياة. السعادة تزداد لدى مشاركتها مع الآخرين، فلو أنّ لديك شمعة مضيئة فإنّ نورها لن يقلّ لو أضأت بها عشرات الشموع الأخرى**" وبناء على نظرته للسعادة فهو يرى أنّ كلّ الأشياء التي ذكرتها هي عوامل تساهم

في رفع مستوى السعادة للشخص بشكل مؤقت، ليعود بعدها إلى مستواه الطبيعي.

- أتفق معك، لا يوجد شخص يعيش بسعادة طوال الوقت، إنّه غير منطقي، فالإنسان يعتاد على الأشياء مع الوقت، والشيء الذي جعله سعيداً في البداية سيتحول إلى شيء طبيعي لدى استمراره.
- الحياة أعطتنا شيء بمنتهى الأهمية، فإذا تأمّلت حولك ستجدين بأنّ لكلّ شيء نقيض، ولكي يعلم الإنسان أهمية الأشياء عليه اختبار الشعور ونقيضه، فحتى تعرف السعادة يجب أن تختبر التعاسة.
- هذا صحيح، فلولا الحزن مثلاً لما عرفنا معنى الفرح، ولولا الفراق لما عرفنا معنى الشوق.

مرّ الوقت بسرعة وهما مأخوذان بهذا اللقاء المفعم بالسعادة ، كانت كلّما حادثته أكثر ترغب بسماع المزيد منه، وكلّما نظرت إلى عينيه الرماديتين الصافيتين تغرق في سحرهما أكثر.

غادرا المقهى ومشيا باتجاه محطة القطارات القريبة، وعندما وصلا إلى هناك قال لها: هل سيبقى لقاؤنا القادم بيد القدر؟.

- أليس هذا أجمل. الصدف الجميلة تجعلنا أسعد.

- إذا كان هناك شيء يشعرنا بالسعادة فلماذا لا نفعله؟ الحياة أقصر من أن نقضيها بالانتظار.
- لأنّه يصبح ذا قيمة أكبر بتلك الحالة.
- على الأقل هل تأخذين رقم هاتفي في حال شعرت برغبة في التحدث معي؟.

ترددت توليب في البداية لكنّها وتحت إصراره الكبير أخذت رقم هاتفه وغادرت، بينما وقف هو يراقبها ويدعو الله أن تغيّر رأيها قريباً، وتجعل لقاءهما القادم جزءاً من الواقع بدلاً من حلمٍ في خيال عاشقين.

(4)

نور بعد ظلام

أتوق إليك أيّها الحبّ، كما تتوق الأرض العطشى للأمطار، كما تتوق الطيور المهاجرة لعشّها الأوّل، كما يتوق العاشق المشتاق لحضن الحبيب الغائب، وأدري أنّ الوصول إليك سيكلفني المشي على درب مفروش بالشوك .

مرّت أربع سنواتٍ عجاف على رحيل فرات، سنواتٍ لم تدّخر لهنّ ما يروي عطش هذا القَدرِ من البعد. كان شوقها له كنار لا ينطفئ وهجها وتزيدها أيّام الفراق اشتعالاً وتوهجاً. كُتِبَ على قصّتهما أن تنمو في منطقة محايدة بين الذاكرة والنسيان، بين النار والماء، بين الوصال والفراق.

كان غياب فرات المحتوم قد استنفذ جميع طاقات قلبها الجريح لكنّ بصيص الأمل الجديد أعاد الفرح إلى قلبها المتألم، وها هي الآن تستعدّ للقائه مجدداً.

فكّرت هل غيرته سنوات الفراق أم مازالت لديه تلك العينان المتألقتان كأشعة الشمس المنعكسة على سطح البحر؟ هل عاملته سنوات الفراق بقسّوة وحفرت عدداً من التجاعيد على وجهه الجميل؟.

كانت تلاحق منشورات أصدقائهم المشتركين علّها تجد صورة له أو خبراً تطفئ به نيران شوقها الجارف، فمنذ رحيله انقطعت أخباره تماماً، وآخر خبر وصلها عنه كان من صديقه آدم الذي نجح في مداواة جراح الماضي لدى توليب، وزرع أملاً جديداً في قلبها، وبسببه خرجت من الصدفة التي حَبَستَ فيها نفسها لوقت طويل.

في جميع الأوقات الصعبة التي مرّت بها، كان آدم السند الذي احتاجته لمواجهة عواصف الحنين للماضي، وآهات القلب المنكسر.

تَذكر أنّها خرجت معه لشرب القهوة، وبعد تردّد طويل طرحت عليه السؤال الشائك الذي يشغل تفكيرها. حاولت أن تسأله بعفوية ودون أن تظهر اهتمامها الصريح بذلك.

- كيف هو فرات؟ هل تتكلّم معه؟.
- نتكلّم من وقت لآخر. إنّه يقيم في اسطنبول حالياً.

تفاجأت من هذا الجواب فهو غادرها ليبقى مع عائلته، ولم تتوقع أبداً أنّه انتقل للعيش في اسطنبول.

- ظننته يعيش مع عائلته.
- قضى بعض الوقت هناك، ثم انتقل إلى اسطنبول. إنّه يعمل في إحدى جامعاتها.

كان الفضول يملأ قلبها ويدفعها لمعرفة المزيد فسألت مجدداً هل حدث أن سألك عني؟.

أحسّ آدم بالضيق لدى رؤية توليب مهتمة بمعرفة أخبار فرات، فآخر شيء يريده الآن هو عودته لتفكيرها والتسبب في حيرتها، وعلى الرّغم من أنّه صديقه المقرب، إلاّ أنّه لا يستطيع تجاهل الصوت الذي يقول له بأنّه لا يستحقّها.

حاول آدم أن يتصرف بهدوء وألاّ يدعها تلاحظ انزعاجه، فأجاب بصوت أراده طبيعياً قدر الإمكان

- نعم لقد سأل عنك.

فرحت لسماع هذا الكلام فقد كان كشخص يهتم بقراءة الأخبار عن بلد لا يعرفها لمجرّد أنّ حبيبته تقطن هناك، وأرادت معرفة المزيد لكنها لاحظت

انزعاج آدم من أسئلتها، فتوقفت عن طرح المزيد واحتفظت بتلك المشاعر لنفسها.

بعد وصول رسالة فرات المخيبة للآمال، قررت توليب الخروج للتجول في شوارع اسطنبول فقد أرادت تشتيت أفكارها والتوقف عن التفكير فيه، لكنّها لم تستطع ذلك فكلّ شيء حولها كان يذكّرها به. فجأة عادت إليها ذاكرة اليوم الذي جلسا فيه في شقته في الطابق التاسع وهما يشربان القهوة ويتأملان سيدني من ذلك العلو.

يومها قالت له: انظر كم تبدو سيدني رائعة من هنا.

فابتسم لها ابتسامة مليئة بالحبّ كعينيها الساحرتين وسألها: هل سيدني هي عشق قلبك، أم أنّ هناك منافس آخر؟.

- أحبّ دمشق فهناك ترعرعت، وعشت أجمل أيّام حياتي برفقة والديّ، لكنّها شرقية بامتياز، أمّا اسطنبول فهي حبّي من النظرة الأولى، فيها يختلط الشرق والغرب ولا تَخرج عن أصالتك لكنّك في نفس الوقت تَتحرّر من قيودك، أما سيدني فهي مدينة عشقي ونضوجي، فيها تختلط الحضارات، إنّها مدينة السحر بامتياز ولذلك اخترتها لتكون منزلي.

- عندما يقطن أحبّتنا في مدينة ما فإنّنا نحبّها بشكل مضاعف، يصبحان وكأنّهما شيء واحد لذلك أنّا أحبّ سيدني الآن بشكل مضاعف، وإذا قُدّر لنا يوماً العيش في اسطنبول ستصبح هي أيضاً عشّاً لنا.
- هل تحبّ اسطنبول؟
- أتعلمين لماذا الطيور المهاجرة تتنقل بين مكانين؟
- إنّه نداء الطبيعة، فلو بقيت في ذلك المكان لمدة أطول سيقتلها البرد، إنّها غريزة البقاء.
- إنّها تهاجر لأنّها تحبّ عالمين، وهي عاجزة عن الحياة بعيداً عن أحدهما، لذلك فهي تقضي حياتها في التّنقل بينهما. فكري عندما يهاجر الطائر فهل وطنه هو وجهته القادمة أم الأرض التي تركها؟ برأيي الذي يحافظ على بقائك هو وطنك، لذلك كلا المكانين هو وطنه.
- لم أعلم بأنه لديك نظرة رومانسية في كل شيء حتى الطيور.

تابعت يومها مازحة من دون أن تدري أنّ القدر سيأخذ كلامها على محمل الجد ويختبرها بذلك كمعلم صارم.

- إذاً عليك أن تعدني بشيء.

نظر إليها مستفهماً فتابعت قائلة.

- أنت ملكي في هاتين المدينتين أيّها الطائر المهاجر.
- قلبي مسكون بك في أيّ مكان أعيش فيه فأنت وطن هذا الطائر المهاجر.

قرّرت توليب الذهاب في رحلة قصيرة إلى جزر الأميرات فهي لم ترها سابقاً، كما أنّ هذه الرحلة ستتيح لها الخروج في نزهة بحرية في اسطنبول، لذلك استقلت العبّارة من منطقة أمينينو إلى جزر الأميرات (آدالار)، وفي الطريق إلى هناك أسئلة كثيرة شغلت تفكيرها، ومن هذه الأسئلة لماذا اختار فرات العيش في اسطنبول وهل يعيش وحده هنا؟. بعد وقت قصير وصلت إلى الجزيرة وخلال الساعات التي قضتها هناك استمتعت بوقتها قدر الإمكان وأخذت العديد من الصور للمكان، وفي طريق العودة فكرت وهي تتأمل البحر، لماذا علاقتنا مع الوقت تتغير بهذا الشكل المجنون؟ فعندما نكون مع شخص نحبّه لا نريد للوقت أن يمر لكنّه يخذلنا ويمرّ أسرع مما نتمنى، وعندما ننتظر أحداً ما فإنّ تلك الساعة تخذلنا أيضاً وتتوقف عن الدوران.

كان ذلك اليوم هو أطول يوم مرّ عليها منذ زمن طويل، لكنّ تلك المعاناة انتهت أخيراً بالخلود للنوم والحلم بالصباح المنتظر.

استيقظت في صباح اليوم التالي باكراً، فالموعد المنتظر طاردها طوال الليل وسرق النوم من عينيها الحالمتين باللقاء. أرادت أن تبدو في قمّة الأناقة والجمال، كانت مرتبكة ولا تدري ماذا عليها أن ترتدي، ولوهلة تمنت لو أنّ ألين بجانبها فهي تعلم كيف تحوّل أي امرأة عادية إلى امرأة ساحرة.

اختارت لهذا اليوم ثوباً بلون النار المشتعلة، تماماً كخصلات شعرها الأشعث القصير، ووضعت فوقه سترة قصيرة من الجينز، ولكي تسير براحة أكبر لبست حذاء مسطحاً ومريحاً، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها. تساءلت هل أبدو جميلة؟ هل سيحبّ فرات شعري وقد أصبح قصيراً الآن؟ هل قسوة السنوات العجاف طالتني وسرقت بريقي؟.

رنّ هاتف الغرفة، وصوت أخبرها بأنّ فرات ينتظرها في الأسفل، سماعها لتلك الكلمات كان كفيلاً بجعل قلبها يطير من الفرح، لم تكن بحاجة للأجنحة للشعور بقلبها يحلّق نحوه.

بضع دقائق فقط تفصلها عن الحلم المنشود، عن اللحظة التي انتظرتها وحلمت بها لسنوات فهل ستمضي الأمور كما تخيلتها؟ هل سيعود حبيبها وتعود حبيبته؟ هل سيصمد الحبّ أمام سنوات الفراق أم أنّ الحياة ستضمّد الجراح بالنسيان؟.

نزلت إلى صالة الاستقبال، وخلال سيرها كانت دقّات قلبها تتسارع كقرع الطبول في احتفال لقبيلة إفريقية، ومع كلّ خطوة تخطوها نحوه كان ذلك الصوت يعلو ويعلو. لمحته من بعيد جالساً بانتظارها، بدا جذاباً وذلك الشيب الذي بدأ بالظهور على أطراف شعره المصبوغ بلون الليل أعطاه حضوراً مميزاً ووقاراً. تأمّلت وجهه القمحي الذي صبغته شمس بلاده بسمرة محبّبة، وتركت عينيها تبوحان له بكلّ الحنين المعتّق بالأشواق، بكلّ العشق الذي أزهر في عينيه كحقول من أزهار التوليب. بدا نحيلاً ومتعباً فقد خسر الكثير من وزنه وفي عينيه لمحة الحزن نفسها التي رأتها في آخر لقاء لهما في سيدني، وقبل وصوله قربها أخذت تفكر ماذا عليها أن تفعل؟ هل تصافحه كغريبين يلتقيان صدفة، أم تعانقه كعناق عاشقة مشتاقة لحبيبها، كعناق أم مشتاقة لابنها العائد بعد غياب؟. وقف أخيراً قبالتها فأحسّت بسطوة رجولته وقوته، تأمّلته مطولاً وكلاهما غارقان بصمت قاتل، ثم مدّت له يدها بالسّلام لتلمسه، لتتأكد من أنّه حقيقة وليس بسراب، أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها وتقول له عانقني وضمّني لحضنك الدافئ، عانقني لتذهب عني برودة سنوات الفراق لكنّها قالت عوضاً عن ذلك

جميل أن أراك بعد هذا الغياب.

أجابها ببرودة لاتعكس حوار العينين وأنت أيضاً.

لم يصدق أنّها تقف أمامه مجدداً، كانت جميلة ومتألقة لكنّها بشكل ما مختلفة ومتمردة بذلك الشعر القصير، كانت رؤيتها مجدداً حلماً رائعاً لطالما تمناه، لكنّها فتحت له جرحاً عميقاً، جرحاً ظنّ أنّه التأم وشفي منه لكنّ مجيئها المفاجئ جعله ينزف مجدداً وكأنّ سكيناً قد غرست فيه.

أرادت البوح له بأشياء كثيرة لكنّ كيف؟ كيف تخبره أنّه رغم الفراق والحزن لازمها كظلّها، وأنّ أصعب الأيّام التي مرّت عليها كانت الأيّام التي شعرت فيها بحقّها في أن تكون بجانبه، دوناً عن غرباء لايعنيهم أمره، كعيد ميلاده مثلاً. كم كان مؤلماً أن يمرّ عليها ذلك اليوم وهي لا تستطيع القول له كل عام وأنت حبيبي.

انطلقا نحو حديقة جولهانة، وهناك مشيا فيها جنباً إلى جنب للاستمتاع بالمناظر الرائعة، كانا وكأنّهما يسيران في حقل من ألغام العشق، يتجنبان الدوس على أحدها بإحدى الجمل الهاربة من سجن العقل كي لا ينفجرا عشقاً. أن تسير معه جنباً إلى جنب هو شيءٌ بسيطٌ للغاية لكنّ الفراق جعله شيئاً أشبه بالحلم ومجرد تحوّله إلى حقيقة جعلها في غاية السعادة. وصلا أخيراً إلى نهاية الحديقة وهناك انبهرت بالمكان فقد كان ساحراً وبسيطاً والأهم أنّه مطلّ على البوسفور، فمن هناك تستطيع رؤية طرفي اسطنبول معاً، وكذلك الجسر الرائع الذي يمتد بينهما.

جلسا على إحدى الطاولات وكلاهما مرتبك ولا يعلم كيف سيبدأ بالكلام، تأملت توليب المنظر الرائع حولها وهي تفكر، هل سيبنى جسر جديد بينهما كهذا الجسر الذي يصل بين جانبي اسطنبول ويوحدها؟.

كان البحر يومها رمادياً باهتاً يشبه لون عينيه، عينيه اللتين تنقّلتا بينها وبين البحر وكأنّهما في حيرة.

أخيراً قال لها: لماذا طلبت رؤيتي يا توليب؟.

فكّرت في قرارة نفسها لا أستطيع أن أخبره عن السبب الحقيقي لطلبي رؤيته لذلك يجب أن أجد شيئاً آخر.

- هناك صورة التقطتها لك في سيدني وأريدها من ضمن الصور التي سأشارك بها في معرضي في اسطنبول فهل تسمح بذلك؟
- ليس هناك داع لسؤالي يا توليب، طبعاً يمكنك ذلك.

عندما انتهيا رافقها في جولة في منطقة السلطان أحمد، وهناك كانت تسترق النظر إليه في محاولة منها لحفظ تفاصيل وجهه التي جعلها البعد ضبابية. أرادت أن توشمها في ذاكرتها كي لا تنساها أبداً، فالبعد شيء كالموت يجبر الإنسان على النسيان حتى لو لم يرد ذلك.

نظرت إلى ساعتها فلاحظت أنّ الوقت سرقها، فقد كان عليها إكمال الإجراءات اللازمة لمعرضها، لذلك قالت لفرات: عليّ الذهاب الآن لإتمام الترتيبات النهائية من أجل المعرض.

- هل تريدين أيّة مساعدة؟.
- لا شكراً سأكون بخير، بالمناسبة أشكرك لإحضاري إلى هذا المكان الرائع.
- نستطيع القدوم مرة أخرى عندما تكونين متفرغة.
- رغم سعادتي الكبيرة بهذا المكان، يتوجب عليّ الاعتراف بأنّ الطعام الذي تعدّه أنت له نكهة خاصة لا تجدها في أي مكان آخر.

كانت هذه طريقتها في قول أريد زيارة بيتك من دون جرح كبريائها كأنثى لو رفض ذلك. كانت تتوق لرؤية بيته وفكرت إذا دعاها فهذا يعني أنّه يعيش لوحده، أمّا إذا تهرّب فعندها ستعرف الجواب الذي تخشى سماعه، أيضاً كانت ترغب في رؤية المكان الذي يعيش فيه فلطالما تخيلته وشعرت بالفضول حوله.

ابتسم لها وقال بألم دفين وحنين مفرط للماضي، أمازلت تذكرين؟.

تنهدت بعمق وأجاب قلبها من دون أن تجرأ على البوح له بذلك، أمازلت أذكر وهل نسيت يوماً حتى أتذكر الآن؟

فجأة أشرقت ملامحه وتابع القول بحماس، تعالي لزيارتي في الغد، إنّها عطلة نهاية الأسبوع وليس لدي عمل، أحضر لك الطعام ثم نذهب من هناك إلى معرضك فأنا لا أريد تفويت مشاهدته.

طار قلبها من الفرح عند سماعها هذا الكلام وقالت له بحماس طفلة، نعم سيكون ذلك رائعاً.

ودّعها، وقبل أن يغادر طبع قبلة صغيرة على وجنتها. تلك القبلة جعلت وجهها يحمر خجلاً، وطبعاً لم تخفى عنها تلك الابتسامة التي ارتسمت على طرف فمه لدى رؤيته لاحمرار وجنتيها.

غادر وانشغلت هي بإتمام الإجراءات الخاصة بمعرضها، كانت سعيدة جداً ولم تصدق أنّ حلمها سيتحول إلى حقيقة، وتمنت في تلك اللحظة لو أنّ والدها معها، وقالت في سرّها أتمنى أن تكون فخوراً بي، وعند حلول المساء عادت للفندق لتصارع ساعات الليل الطويلة وحدها، بانتظار شروق شمس الحب مجدداً في الغد.

(5)

موسم تفتح الورود

كما أنّك لا تستطيع الهروب من قدرك، فأنت أيضاً لا تستطيع الهروب من قلبك، لذلك استسلمْ له بكلّ رضا كعاشق صوفيّ متيّم، وتَفتّحْ كزهرة تشهد الربيع لأول مرة.

مضى أسبوعان كاملان على لقائها بفرات، ومنذ ذلك اليوم والخيالات الممزوجة بالشوق تلازمها. حضوره الملفت، ثقته اللامتناهية، صوته العميق والحنون، كلماته المختارة بعناية، كلّها جذبتها نحوه كما تجذب الشمس زهرة دوّار الشمس.

هل تراها معجبة بفرات؟ لسبب ما كان يذّكرها بوالدها، وربما لذلك السبب لم تستطع مقاومة تلك العينين المليئتين بالحبّ والحنان. كانت نظراته قد سكنت حواسها وتسرّبت حتى إلى أحلامها.

كان عقلها وقلبها يتصارعان حول لقائه. قلبها يصرّ على اللقاء وعقلها يمنعها وينهى القلب عن الحلم. أخيراً وبعد سلسلة من النزالات الخاسرة

هزمت أمام أشواقها وانتصر القلب بالضربة القاضية، فبعثت له برسالة طال انتظارها.

رنّ هاتفه ولمفارقات القدر لم يره لساعات. كان هذا الهاتف لا يفارقه لأيّام أملاً في لقاء يروي عطشه لها، لكنّه بعد أن تضاءلت آماله في فتح أبواب قلبها الموصد وضعه جانباً، وبعد مرور ساعات على وصول الخبر المنشود رأى الرسالة أخيراً ففتحها بسرعة، كان ألم الشوق قد كوى قلبه وكلّ ما تمناه هو رؤية كلمة واحدة فقط انتظرها لأيّام.

قرأ الرسالة عدّة مرات وهو غير مصدق.

هل لنا أن نتشارك صباحاً جميلاً من صباحات هذه المدينة غداً؟

وهل يعقل ألاّ يرغب بلقاء حَلُم فيه لأيّام؟ فكما الهواء يجعلنا على قيد الحياة كانت توليب تجعله على قيد عشق. كان شوقه إليها جارفاً وغير مفهوم، لم يعلم كيف تسلّلت خلسة إلى قلبه؟ كيف استدّل قلبه عليها وسط غيوم الحزن واليأس والخيبة؟ كيف استسلمت قلعة قلبه المحصنة لها وفتحت الأبواب طواعية لغزوها المسالم؟.

أمسك الهاتف وبعث لها برسالة

لو كنت أعلم أنّ الحياة قررت أن تبتسم لي أخيراً لما تركت هاتفي بعيداً. كل شيء يصبح أجمل برفقتك حتى صباحات سيدني المزاجية، هل نلتقي في العاشرة؟.

على الطرف الآخر، ومع تأخر وصول الردّ، كان عقلها يضع اللوم كلّه على قلبها المسكين، ويكيل له بسيل من الاتّهامات الجائرة، وعندما تَعِبَ القلب ولم يعد قادراً على تحمل المزيد انسحب من ساحة المعركة محبطاً، وترك المبادرة للعقل، لكنّ وصول رسالة فرات قلبت الأوضاع مجدداً وأعادت المبادرة للقلب، فقد كانت كالماء المنتظر بالنسبة للنبتة الذابلة، ومن سعادتها أعادت قراءتها عدّة مرّات، بعثت برسالة له لتخبره عن المكان الذي سيلتقيا فيه في الغد، ثم بفرح المنتصر ألقت بنفسها على السرير، ووضعت يديها على قلبها وهي تقول: كنت محقاً أيّها القلب، استعد الآن للإبحار في بحر المجهول.

قضى فرات ليلته تلك بسعادة، وطبعاً لم يخفى الأمر عن آدم الذي سأله بفضول، ماذا حدث لك تبدو سعيداً جداً؟

- توليب بعثت لي برسالة أخيراً.
- لقد جعلتك تنتظر كل ذلك الوقت، إنّها فتاة ذكية.
- آدم أرجوك لا تعجبني طريقتك في التحدث عنها مطلقاً.

- لماذا أليست جميع النساء متشابهات؟ أمهلها بعض الوقت وبعدها سترى وجهها الحقيقي.
- حسناً دعنا نتوقف هنا فأنا أختلف معك بوجهة نظرك هذه، ولا أريد لأيّ شيء أن يعكر صفو سعادتي اليوم.

بعد رحيل آدم أمسك فرات بالهاتف وبعث برسالة لتوليب لكن عندما نظر إلى ساعته رآها قد تجاوزت الثانية عشر ليلاً، ففكّر بينه وبين نفسه ماذا ستقول الآن وأنا أبعث لها برسالة في هذا الوقت؟ ولتصحيح خطأه بعث برسالة أخرى ليعتذر.

استيقظت توليب بشيء من الذعر عندما سمعت رنين الهاتف، وعندما نظرت إليه رأت رسالة من فرات، فتساءلت ماذا يريد في هذه الساعة؟ هل سيعتذر عن اللقاء غداً؟. فتحت الرسالة بفضول وقرأت ما بداخلها

كم يلزمني من الصبر كي أواجه عواصف الشوق والانتظار لهذه الليلة.

ابتسمت وهي تقول: رسالة في هذه الساعة من الليل من أجل ذلك، كم أنت غريب، وقبل أن تعود للنوم وصلت رسالة أخرى منه تقول

آسف إن كانت أشواقي المتمردة قد سرقت النوم من عينيك الحالمتين.

في صباح اليوم التالي بدأ كل شيء بشكل سيء، وكأنّ الكون قد غضب فجأة من هذا اللقاء، فقد استيقظت متأخرة على غير العادة، وكان الجو سيئاً والأمطار تهطل بغزارة.

سيدني هي مدينة تختلط فيها الحضارات والأعراق وجمالها في ذلك، لديها من التنوع في الثقافات ما يجعلك تسافر إلى جميع أنحاء العالم وأنت مقيم فيها، إنّها مزيج من كل شيء ولذلك هي تعشقها، لكنّها في نفس الوقت من أكثر المدن مزاجية، ومن الصعب عليك أن تتوقع ماذا ستكون حالتها المزاجية في الغد.

قالت محادثة سيدني : على ما يبدو لست في مزاج جيد اليوم، لماذا غضبت فجأة ؟ هل غرت من لقائي بفرات؟.

تجهزت بسرعة وخرجت للّحاق بالحافلة، لكن بما أنّ كل شيء سار بشكل معاكس، فقد تعطلت الحافلة قبل الوصول بقليل. نظرت إلى ساعتها فوجدتها تشير إلى العاشرة إلا ربع، فكّرت هل عليها أن تخبر فرات بما حدث وتُؤجّل الموعد لوقت آخر؟

كانت تريد لقاءه بشدّة لذلك عدلت عن الفكرة وقررت الانتظار لترى إن كان في استطاعة السائق إصلاحها، لكن السائق طلب من الجميع النزول وانتظار الحافلة القادمة.

صممت توليب في ذلك اليوم على مجابهة جميع العوائق لرؤيته لذلك انتظرت بصمت الحافلة الثانية، وعندما وصلت تابعت دربها المليء بالأشواك للقائه.

كان المطر مازال يهطل بغزارة عندما وصلت، فركضت بسرعة إلى المقهى الموجود على الطرف الآخر من الشارع. كان لهذا المقهى مكانة خاصة لديها فمالكه ذو الأصول الإيطالية صديقها، وهو من أكثر الأشخاص طيبة يصرّ دائماً على مناداتها (Miss) على الرغم من أنّهما أصدقاء، وقد طلبت منه مراراً عدم فعل ذلك لكنّه في كل مرة يقول لها: أنت أكثر امرأة تستحق هذا اللقب ومناداتك به تسعدني، حتى أنه قال لها في أحد الأيام عبارة لن تنساها أبداً "**يوماً ما ستجعلين أحد الرجال أسعد رجل في العالم لحصوله عليك**".

سمعت كالعادة صوت الموسيقا التي تصدح بالأغاني الأوبرالية، وعلى ما يبدو كما نبدأ صباحنا بالقهوة العربية وصوت فيروز، يبدؤون صباحهم

بالاسبريسو والأوبرا. كان المقهى صغيراً نسبياً، ولديه طاولات في الداخل والخارج، لكن بسبب الطقس السيء لم يكن هناك أي أحد في الخارج.

نظرت إلى الداخل فرأته يشرب القهوة ويقرأ، وقفت تتأمله وهو مازال مشغولاً عنها بالقراءة، فشعرت بدقات قلبها تتسارع، كقرع المطر الغزير على شباك المقهى. مجرد رؤيته من جديد أحالتها إلى امرأة نابضة بالحياة.

اقتربت منه وهي تقول: لو أنك تدري كم كان لقاءنا اليوم صعباً.

قال بعد أن وضع الكتاب جانباً لقد استهلكت كل شيء بانتظار مجيئك، قهوتي، شوقي، قلقي، وصبري، لكن كلّ شيء يستحق مجيئك.

كانت الطاولة بالكاد تتسع لفناجين القهوة وهذا ما جعلها قريبة جداً منه. أراد أن يطلب القهوة لها لكنّ صاحبّ المقهى أحضرها قبل أن يفعل وقال له: إنّها زبونتنا الدائمة، ونعلم ما تريد، استمتعا واعتني بها جيداً فهي تستحق الأفضل.

- أعتذر منك، ليس من عادتي الوصول متأخرة لكنّ الحياة أفسدت مخططاتي.
- إذاً سوف نعاند الحياة ونضع خططاً جديدة.
- من الرائع أن أرى رجلاً يقرأ هذا يجعلنا أكثر قرباً. ماذا تقرأ؟

- إنها رواية لأمين معلوف " صخرة طانيوس". هل تعرفيه؟

لم تخفي مفاجأتها، فمن دون جميع الكتّاب في العالم اختار كتاباً لكاتبها المفضل، هل هي مصادفة بحتة أم أنّ الحياة تسخر منها؟ ماذا لو كانت هذه إشارة من إشارات القدر؟.

- أمين معلوف طبعاً أعرفه، إنه كاتب رائع يمزج الحقائق التاريخية مع أفكاره الخيالية، لديه مهارة وثقافة حول كلّ ما يتعلق بالشرق الأوسط. أحبّ كتاباته كثيراً ويجب أن أعترف بفضله تعلمت أشياء كثيرة.
- ما هي روايتك المفضلة له؟
- "سمرقند".
- حتماً سأقرأها فمن يدري قد تكون الكنز الذي أعثر فيه على مفاتيح شخصيتك. أعتقد أن أفضل طريقة لمعرفتك هي قراءة كتابك المفضل.
- لا أدري صحة هذا الافتراض لكن يمكنك التجربة، للعلم فقط سمرقند هي إحدى رواياتي المفضلة وليست الوحيدة، لذلك ولكي تثبت صحة نظريتك يجب أن تقرأ كل رواياتي المفضلة.
- لم لا فأنا أحبّ القراءة ويسعدني الغوص في عالمك الخفي لاكتشافك.

فكرت كم من الأشياء تغيرت فيها منذ لقائها به، فكلّما اقتربت منه وتعرفت عليه أكثر، تشعر بارتياح كبير وانفتاح بمشاعرها، ومن دون أن تشعر وجدت نفسها تسأله برأيك هل الحبّ هو من يغيرنا، أم أنه يساعدنا على رؤية ما بداخلنا فقط؟.

- الحبّ وحده هو من يعرّينا ويفضحنا، فقد نبدو سعداء للآخرين ولدينا حياة مثاليّة، لكنّنا وحدنا من نرى الألم الدفين في أعماقنا، وقد نعيش طوال حياتنا مرتدين الأقنعة دون أن يرى أحد وجهنا الحقيقي، إلى أن يأتي حبّ صادق يجعلنا نخلعها لأنّنا نثق بتقبّل الطرف الآخر لنا.
- تقصد الحبّ لا يغيرنا وإنّما يجعلنا نرى حقيقتنا ونتقبلها؟.
- تماماً، الحبّ يجعلنا نحبّ ونتقبّل أنفسنا أكثر.
- ينتابي شعور غريب بأنني التقيتك من قبل.
- لا يعقل فكيف سأنسى لقاءً جمعني بشخص مثلك.
- هل تؤمن بمفهوم الحياة السابقة؟ ربما التقينا في زمن سابق وكان قدرنا أن نلتقي مرة أخرى. قرأت بأنّ الأرواح تعود للحياة من جديد لتكمل ما تركته ناقصاً في حياتها السابقة، ربما ندم على شيء فعلته، أو شيء كان يجب أن تفعله.

- إن كان هذا صحيحاً فعلى الأرجح أحببتك في تلك الحياة، لكن بما أنّني لا أؤمن بهذه الأشياء، أفترض بأنّك إحدى البطلات التي أغرمت بها في صفحات كتاب ما، وتركت أبوابي مشرعة لثقتي بأنّها لن تخرج من تلك الصفحات.
- ترى من هي البطلة التي أشبهها لهذا الحد؟.
- ميغان بطلة رواية طيور الشوك، هي أسرت القلوب برماد الورود وأنت أسرت القلوب بتوهج الورود.
- ميغان التي اختارت الحبّ المستحيل؟ أتمنى ألا تكون محقاً.
- ميغان التي لا يستطيع أي شيء مقاومة حبّها حتى كاهن.
- لكنّها عانت كثيراً في سبيل هذا الحبّ.
- وهل يوجد حبّ بلا معاناة، المعاناة هي الاختبار الحقيقي للحبّ وقليلون هم الصامدون. أتعلمين يا توليب أنت وميغان تشتركان في شيء رائع، كلاكما لديكما شعر رائع وعينين متلألئتين كالجواهر. ممن ورثت هاتين العينين؟
- من أمي الحبيبة.

أخرجت توليب من محفظتها صورة لوالديها وقدمتها لفرات.

- لديكما ذات العيون وذات لون الشعر، للحقيقة عندما رأيتك في الحفلة ظننت بأنّك استرالية أو ربما أوربية، فغالبية النساء الشرقيات لديهن شعر أسود وعيون غامقة.
- هناك العديد من الفتيات لديهن بشرة فاتحة وعيون ملونة لكن في حالتي أنت محق، جدتي لوالدتي أوربية وأمي تشبهها، تَعرّف أبي عليها عندما كان يدرس في أوربا وتزوجها هناك، ثم عادا بعدها إلى دمشق وأنا ولدت وعشت حياتي هناك.
- لماذا تدرسين التصوير؟.
- هناك أسباب عديدة فمنذ طفولتي بدأت أحبّ التصوير، ومع الوقت أصبح هوايتي المفضلة، فقد كنت في السابعة من عمري فقط حين بدأت أقوم بتصوير ألعابي والدمى الخاصة بي. شغفي بالتصوير بدأ من هناك، لكن من جعلني أحبّه هو أبي فقد كان مصوراً، وأنا أريد أن أصبح مثله.
- لماذا قلت كان مصوراً هل ترك التصوير؟.
- لقد غادر بعيداً إلى مكان لا أستطيع الوصول إليه في الوقت الحالي .

كانت علاقة توليب بوالدها قوية جداً، فمنذ صغرها اعتادت على مرافقته أينما ذهب، حتى أنّها وهي طفلة عمرها سنوات لم تكن تذهب للنوم إلا

برفقته، كان دائماً يقرأ لها القصص ويخرجان معاً في نزهات على الدراجات الهوائية، ثم عندما كبرت قليلاً اشترى لها آلة تصوير صغيرة كالتي معه، وبدأ يأخذها معه في جولاته ليعلّمها فن التصوير، لم يكن هناك شيء تطلبه توليب ولا يفعله لها، كان يعشقها أكثر من أي شيء في هذا العالم، حتى أنّه في أول يوم لها في المدرسة هو من أوصلها إلى هناك، وبقي جالساً في الخارج ينتظرها خوفاً من بكائها. عاشت توليب أجمل أيام حياتها إلى جانبه إلى أن فارقها إثر نوبة قلبية، غادر يومها ليجتمع بحبّ حياته لكنّه ترك جزءاً منه يصارع للبقاء. كانا قريبين جداً ولا يفترقان وفقدانه ترك ألماً كبيراً لديها لم يعوضه أي شيء.

رأى فرات معالم الحزن تغزو وجهها وندم على سؤاله، فلم يرد أن يتحول هذا اللقاء إلى ذكرى حزينة. ضغط بلطف على يديها وهو يقول: الفراق مؤلم لكن كلّما خرجت ومعك آلة التصوير اعلمي أنّه سيكون معك، حتى لو لم تريه فهو حتماً معك ولا يفارقك فهو يعيش في قلبك.

بقيت توليب صامتة ولم تعلق على كلامه، بينما مسحة الحزن على وجهها أصبحت أعمق، وفجأة لآلئ من الدموع بدأت تتجمع في عينيها.

نهضت من مكانها وخرجت من المقهى وعندما تبعها وجدها تبكي. وقف كلاهما تحت المطر وهو لا يدري ماذا عليه أن يفعل؟ فجأة إحساس كبير من الحنان ملأ قلبه، فاقترب منها ومسح دموعها ثم دون تفكير بالعواقب ضمّها إلى صدره وداعب شعرها المموج بكل رقة.

أراد في تلك اللحظة أن يخبئها عن هذا العالم، وأنّ يضمها إلى قلبه الذي لا يرى في هذه الدنيا سواها، أراد أن ينسيا معاً وفي عناق واحد كل شيء مؤلم سكن قلبه وقلبها. تمنى في تلك اللحظة أنّ يتوقف الوقت ويبقيا هكذا للأبد.

(6)

قارورة عطر

يبقى للعطر وفاء خاص، حضور ملفت يذّكرك بمن فقدت حتّى عندما تخونك ذاكرتك، يأخذك في رحلة إلى الأحلام الممنوعة، إلى الذكريات الدفينة، إلى أزمنة أُجبِرنا على نسيانها بعد أعوام طويلة من الفراق.

بعد انتهاء توليب من ترتيبات المعرض عادت إلى الفندق سعيدة فغداً هو اليوم المنتظر ولحسن حظّها ستكون مع فرات طوال اليوم.

استلقت على سريرها وهي تفكر هل سأجرؤ على طرح الأسئلة التي تجول في رأسي؟ فكرة مجنونة خطرت لها فنهضت ووقفت أمام المرآة، ثم بدأت بطرح الأسئلة عليه، كانت كطالب التمثيل الذي يحضّر دوراً في مسرحية مهمة وعليه أن يتقنه في وقت قصير. قضت ليلتها تلك هي والمرآة وسيناريو اللقاء القادم.

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً هذا لو افترضنا أنّها نامت أصلاً، واستغرقت كاليوم السابق وقتاً طويلاً في اختيار ثيابها والاستعداد ثم غادرت وهي محملة بالآمال والرغبات.

في الطريق إلى بيته كان هناك صوت في داخلها يقول: امضي أيها القطار... أسرع أرجوك .... امضي أيها الوقت... خذني إليه... لكنّ الوقت لم يمضِ عناداً. تذكرت في تلك اللحظة مقولة قرأتها لويليام شكسبير تقول" **ساعاتنا في الحبّ لها أجنحة وفي الفراق لها مخالب**".

وصلت أخيراً وقرعت الباب فسمعت وقع خطواته القادمة. في الماضي اعتادت على تطويق رقبته بذراعيها وطبع قبلة على وجنته لحظة فتحه الباب لها لكنّها اليوم لم تفعل ذلك، هو أيضاً تصرّف بشكل مغاير ولم يقترب منها وإنّما ابتعد جانباً مفسحاً لها المجال للدخول.

دخلت توليب وألقت نظرة سريعة على المكان، كانت الشقة بسيطة وغير متكلّفة، لكنّها متناسقة الألوان وفي المجمل يغلب عليها الطابع الريفي الحميمي، لسنوات طويلة حاولت تخيل بيته وكيف يبدو واليوم ترى بأنّه يشبهه فعلاً فهي تشعر به في كل شيء حولها.

كانت تبحث عن آثار مرور أنثى أخرى على هذا المكان، لكن لا شيء حولها يوحي بذلك، فالمرأة لها لمساتها التي تدلّ على مرورها في أي بيت، ولن يخفى هذا عن أيّ امرأة أخرى.

سألته هل تريد مساعدة؟.

أجاب: لا لقد انتهيت، هل تأخذين الأطباق إلى الطاولة لو سمحت؟.

كانت المائدة مدهشة فقد أعدّ كل شيء وكأنّهما لم يفترقا.

قال لها مازحاً: لقد أعددت لك البيض كما تحبينه.

- مازلت تذكر كيف أحبّه؟.
- لقد أعددته لك مرات عديدة فكيف سأنسى ذلك. هل أسكب لك الشاي؟.
- نعم لو سمحت لكن بلا ...
- نعم أعلم بلا سكر.

أدهشها مجدداً بذاكرته التي احتفظت بكلّ شيء يخصّها كما كان في الماضي، ولدى انتهائهما من تناول الطعام حاولت البدء بطرح الأسئلة عليه لكنّ لسانها توقف عن الكلام وبدأت تشعر بتعرق فقالت له: أريد دخول الحمّام لطفاً.

قادها فرات باتجاه الحمّام وعندما دخلت قامت بغسل يديها ووجهها وبدأت تتنفس بهدوء، وعندما رفعت رأسها لتعيد ترتيب شعرها المبعثر أمام المرآة لمحت العطور الموضوعة على أحد الرفوف. قارورة واحدة فقط لفتت انتباهها وأعادت لها ذكريات بعيدة. كانت القارورة فارغة لكنّها لا يمكن أن تنسى هذا العطر.

فكّرت بينها وبين نفسها هل هذه هي القارورة التي أهديتها له منذ سنوات؟ صوت في داخلها قال لها: هذا مستحيل، ربما اشترى قارورة أخرى، وتصادف انتهاؤها بقدومك.

تذكّرت توليب كيف اشترت له ذلك العطر، فقد مرّا ذلك اليوم قرب متجر يبيع العطور، ولأنّها مولعة بها طلبت منه الدخول برفقتها، وقبل خروجهما سأله الرجل الذي يعمل في المتجر إن كان يرغب بتجربة أيّ عطر. رفض في البداية لكنّها أصرّت عليه وبعد أن جرّبا عدداً من العطور اختارت له هذا العطر.

كانت تستعد لاعادة القارورة إلى مكانها عندما سمعت قرعاً على الباب وصوت يقول لها: لقد أحضرت لك منشفة نظيفة، هل أستطيع الدخول؟. أجابت: نعم يمكنك ذلك، ولدى دخوله رأى قارورة العطر بين يديها، فصدم

كشخص فضح سرّ من أسراره. لم يكن هناك داع لقول أيّ شيء فنظراتها المتسائلة كانت كافية ليعلم بماذا فكرت.

قال لها بنبرة أرادها عادية قدر الإمكان أمازلت تذكرينها؟.

- هل احتفظت بالقارورة الفارغة كل هذا الوقت؟.

لم تصدق ما سمعت، إذاً إنّها نفس القارورة القديمة وليست جديدة، لكن لماذا يحتفظ بقارورة فارغة خصوصاً أنّها من شخص يريد نسيانه؟

- نعم لقد احتفظت بها فقد كان عطراً جميلاً. لقد حضّرت القهوة هيا تعالي لنشربها معاً على الشرفة.

أصبح كلّ شيء أكثر ضبابية واختلطت أفكارها مجدداً، وفجأة تذكّرت بحزن قول قرأته سابقاً لفاروق جويدة ويعبر عن حالتها الآن **" العطر عطرك والمكان هو المكان، لكن شيئاً قد تكسّر بيننا لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان".**

عندما خرجت رأته يقوم بتشغيل الموسيقا، وأغنية من الماضي وجدت الطريق إلى قلبها من جديد، كانت هذه الأغنية هي أغنية "عيني عليك".

تساءلت هل وضع هذه الأغنية عن عمد؟

جلسا على الشرفة يحتسيان القهوة، وكلمات الأغنية تزّن في رأسها من جديد، تذكّرت كيف اعتاد على غنائها لها فقد كان يحبّ هذه الأغنية. انتهت الأغنية وفجأة قرر أحدهما وضع السلاح جانباً والاستسلام، فسألها ماهو السبب الحقيقي وراء طلبك لرؤيتي بعد مرور كل هذا الوقت؟.

كان سؤاله صادماً، فبينما كانت تتجهز للبدء بمعركة الأسئلة والتحرك بخطا محسوبة، تقدم هو فجأة ورمى بقنبلة. كان سؤالاً مباشراً وصاعقاً، ووقعه عليها أتى كزلزال. أرادت أن تقول ماذا أتى بي غير شوقي، لكنّ صوتها لم يخرج.

كانت كطفل صغير أمسكت به أمه وهو يقوم بعمل لا يجب عليه القيام به، وهي الآن تستجوبه ليقول الحقيقة. طال صمتها وهو يتأملها بتلك النظرة المليئة بالتساؤلات، شعورها الآن يشبه شعور الطفل الصغير الذي لايريد أن يكذب، لكنّه في نفس الوقت يخشى من ردة فعل أمّه لو أخبرها بالحقيقة.

هي تعلم جيداً أنّه إذا أرادت الحصول على العشق فعليها أن تمتلك الشجاعة لذلك، فالعشق يشبه القفز المظلي من طائرة تحلّق عالياً في السماء، وعليك أن تتحلّى بالشجاعة لتقفز متجاهلاً كلّ الاحتمالات التي تمرّ في رأسك، لأنك لو استمعت لها فإنّ الخوف لن يجعلك تقفز. في

العشق عليك القفز وتحدّي العقل لتعيش هذا الشعور الرائع الذي يشبه متعة التحليق كطائر.

نهض من مقعده وتوجه نحو الداخل فقد علم أنّها لن تتكلم، لكنّها تبعته وجلست بجانبه ثم وضعت يديها بشيء من التردد والحذر فوق يديه، فقد أرادت أن تستمدّ القوّة والشجاعة منه لتتكلم.

قالت وهي تنظر بحبّ إلى عينيه أنا لم أعد أريد الهروب.

- الهروب من ماذا؟
- الهروب ممّا أريده، والادّعاء بعدم وجوده.
- وماذا تريدين؟.
- أن أتبع قلبي.

عادت بذاكرتها إلى اليوم الذي تحدّثت فيه مع ألين، كانت غاضبة منها لأنّها مازالت تفكر بفرات، وبعد ضغطها عليها لم تستطع التحمل أكثر وقالت لها: لقد دعوت الله كثيراً كي أنساه لكن لم يحدث، ألا يقولون بأنّ الله هو من يزرع الحبّ فينا لشخص دون سواه، وهو الوحيد القادر على أخذه، أنا متأكدة بأنّه لا يريد لنا الحزن لكن لماذا لم يستمع لأدعيتي؟ لماذا لم يرى دموعي وأنا أبتهل مراراً وتكراراً؟

- هل أردت حقاً أن تنسيه؟ أنت لا تريدين أن تنسيه وهذه هي المشكلة، أنت لا تتركين لنفسك خياراً آخر.

صدمها ذلك السؤال هل أرادت حقاً أن تنساه؟ وصدمتها أكثر الإجابة لا لم ترد ذلك.

أمسكت ألين بيديها وتابعت كلامها: الله يستمع لما يريده قلبنا وليس لما يقوله لساننا، لقد استمع إلى قلبك دائماً لكنّك كنت غافلة عن ذلك.

كلام ألين يومها فتح عينيها وجعلها تغيّر الطريقة التي تدعو بها الله، وبعد ثلاثة أشهر من تلك الحادثة حجزت تذكرتها للذهاب إلى اسطنبول بعد أن أتتها الإشارة بذلك.

سحب فرات يديه من تحت يديها وذهب لتشغيل الموسيقا من جديد، ثم مدّ يده لها وهو يقول: لنرقص معاً من أجل الأيّام الماضية.

اقتربت منه بتردد، فأمسك بإحدى يديها ووضع الأخرى على كتفه، ثم أحاط خصرها بذراعه القوي وضمّها بقوة لقلبه، ترك جسده ليقول لها كلّ ما كان عاجزاً عنه بالكلمات وكذلك فعلت هي. كان قربه منها مباغتاً وقد أربكها هذا الوضع كثيراً. أرادت الكلام لكنّه وضع إصبعه على شفتيها وقال لها هامساً: ليس الآن، دعينا نرقص فقط.

فجأة شعرت بعجز كبير أمام سطوته وسحره، فأغمضت عينيها واستسلمت لذلك الشعور الغامر الذي ظهر بينهما مجدداً، أحسّت بدفئه يغمرها وأنفاسه تحرقها. كانت رائحة عطره تتسرب رويداً رويداً إلى شراييها وهي تمنع يدها بصعوبة من مداعبة شعره الممزوج ووجهه البهيّ. تمنّت لو أنّ الموسيقا لا تتوقف وتبقى هكذا بين يديه إلى الأبد.

عاش كلامها لحظات سحرية هاربة من الواقع، فكلاهما يتحرق شوقاً للآخر لكنّه خائف من الاقتراب، والآن وجدا الفرصة سانحة كي يكونا قريبين من بعضهما البعض دون حاجة لأي تبرير، وكأنّ حبّهما كان منتظراً الفرصة كي يولد من رماده من جديد كطائر الفينيق.

(7)

أوبرا عايدة

في الحبّ لعنة تلاحق المحبين أينما وجدوا، لعنة تتكرّر في جميع العصور والحضارات، وتحمل في طيّاتها وفاء الحب وسطوته وجنون الغيرة ونارها وهوس الانتقام القاتل.

ذهبت توليب مع فرات في ذلك اليوم إلى موعد غامض فقد أصرّ على إخفاء الأمر ولم يعطها أيّ معلومات عن المكان المنشود وفي الطريق إلى هناك عادت وسألته مجدداً: ألن تخبرني إلى أين سنذهب؟. أخرج تذكرتين من جيب سترته وأعطاهما لها، ولدى رؤيتها للتذكرتين علمت على الفور وجهتهما القادمة ولم تصدق أنّه اشترى تذاكر لحفلة في دار الأوبرا. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحضر فيها حفلاً في دار الأوبرا، ولم تعلم إن كان شيئاً جيداً أم لا فالأوبرا هي فن له جمهوره الخاص جداً.

بدا جليّاً أنّه عرض هام نتيجة للازدحام الكبير أمام المسرح، وتوليب بدت متفاجئة فلم تتوقع وجود هذا العدد الكبير من المتذوقين لهذا الفن.

وقفا وراء الحشود بانتظار فتح البوابات ودخول المنتظرين، وبينما كانا في انتظار الحدث الهام سألها: هل أعجبتك المفاجأة؟ أتمنى أن تكوني متحمسة مثلي للحضور.

- لا أريد أن أخيّب أملك، لكنّني لا أعلم ماذا عليّ أن أتوقع؟ إنّها المرة الأولى التي أحضر فيها عرضاً أوبرالياً.
- أنت تمزحين؟ ألم تشاهدي أيّ عرض في السابق؟.
- للأسف لا، لكن لكلّ شيء مرّة أولى وأنا سعيدة لأنّني سأشاركك هذه التجربة، هذا يجعلها ذو قيمة أكبر لديّ.
- هل تعلمين على الأقل قصّة هذه الأوبرا.

أجابت وهي تشعر بشي من الخجل، مع الأسف لا.

- توليب هذا لا يعقل، ألم تسمعي عن أوبرا عايدة من قبل؟.
- طبعاً سمعت، لكنّني لا أعرف القصة؟.
- سأحاول إخبارك ما أستطيع قبل الدخول، كي تستطيعي فهم ما يجري في الداخل.
- إنه خطأك لو أخبرتني البارحة أنّنا سنحضر هذا العرض، كنت ثقّفت نفسي كي لا أبدو بهذا الموقف المحرج أمامك.

ضحك وهو يراها تشعر بالخجل ثم قال: دعيني أخبرك بالقصة كي لا نشعر بالوقت أثناء انتظارنا للدخول.

- أوبرا اييدا كما كتبت في النص الأصلي الذي اكتشف في القرن التاسع عشر، تحكي قصة حبّ بين الأميرة عايدة ابنة الملك الحبشي أموناصرو وقائد الجيوش المصري رداميس. أسر الفراعنة عايدة وجعلوها جارية للأميرة أمنريس ابنة الفرعون وبعدها بدأت الأميرتان تتنافسان على حبّ رداميس وفي النهاية وقع رداميس في حبّ عايدة. نشبت الحرب بين الفراعنة والأحباش بسبب عايدة فوقعت في صراع حاد بين حبّها لرداميس وحبّها لبلدها لكنّها لم تستطع فعل شيء، وعندما انتهت الحرب بفوز الفراعنة أراد الملك تزويج ابنته بالقائد رداميس لكنّه لم يرغب بذلك فهو يحبّ عايدة، وفي الوقت نفسه طلب والد عايدة الأسير المساعدة منها للحصول على معلومات سرية من رداميس لإنقاذهم، ومن جديد وقعت عايدة في صراع بين حبّها وواجبها، وفي النهاية واقفت على طلب والدها وحصلت على المعلومات. خيانة رداميس اكتشفت وحكم عليه بالموت في غرفة مظلمة في معبد الإله فولكان، رداميس استسلم لقدره لكن عندما أُغلقَ

عليه القبر تفاجأ بوجود عايدة هناك، وهكذا انتهت القصة بموت الحبيبين معاً.

أخيراً فتحت الأبواب، ودخلا إلى المسرح المفتوح لدار الأوبرا، كان الجو ربيعياً جميلاً ونسمات البحر العليلة تداعب وجهك، وعندما تجلس لتشاهد العرض ترى البحر أمامك، وعلى يسارك جسر سيدني الشهير والمباني العالية التي تلمع كالنجوم، وأمامك بناء أوبرا سيدني الرائع، كل شيء رسم يومها كلوحة مبهرة فكيف لا تشعر بالسحر.

بدأت الحفلة ببداية مذهلة، وأكثر شيء أثر فيها كانت الموسيقا التي توضح الصراع المتأجج للشخصيات، توليب تحبّ آلة الكمان كثيراً ولذلك أغرمت بالمشهد الذي عزفت فيه آلة الكمان لحناً آسراً مرافقاً لدخول عايدة للمرة الأولى، أيضاً من المشاهد التي أحبّتها هو مشهد صراع عايدة بين حبّها لبلدها وحبّها لراميس، أمّا المشهد الأخير فقد أتى ليختم هذا العرض الرائع بنهاية مأساوية للحبّ، فقد أقدمت أمنريس على رمي نفسها على قبر راميس لتقوم بصلاتها الأخيرة له، بينما راميس وعايدة في داخل القبر مستعدان لمواجهة الموت معاً.

سألها بعد انتهاء العرض هل استمتعت بحضورك الأوبرا لأول مرة؟.

- لا يمكنني التعبير عن حجم سعادتي، كان العرض رائعاً ويستفزّك من الداخل، فأنت ترى صراع المشاعر المتناقضة التي يمرّ بها الإنسان، شكراً لك لإحضاري.
- برأيك من هو المنتصر في النهاية، الحبّ أم الغيرة والانتقام؟.

شعرت بالحيرة من هذا السؤال، فغيرة وانتقام أمنريس كانت السبب في موت رداميس، لكنّها بنفس الوقت لم تستطع قتل الحبّ الذي جمع بين رداميس وعايدة. صحيح بأنّ الحبّ انتصر على كل شيء لكنّ عايدة ورداميس ماتا.

- لا أدري يا فرات هذا سؤال صعب، لكن يمكن القول بأنّ الجميع كانوا خاسرين في هذه القصة.
- لماذا لا تقولي الجميع كانوا منتصرين، فقد انتصر الحبّ وصمد رغم كل شيء، وكذلك انتصرت الغيرة والانتقام فقد قتلت ذلك الحبّ.
- لكن ما الفائدة من هذا النصر، عايدة ورداميس ماتا وأمنريس ستعيش بالحزن والذنب على ما فعلته بحبيبها.
- أمنريس هي الخاسرة فعليها عيش حياتها التعيسة بدونه وهذا هو عقابها.
- هل تعتقد أنّ الحبّ هو السبب في اختيار عايدة الموت مع رداميس، أم أنّه الشعور بالذنب، فهي السبب في خيانته والحكم عليه بالموت.

- أعتقد أنّه الحبّ، فشعورها بالذنب لن يجعلها تقدم على الموت لو لم تكن تحبّه حقاً، لاتنسي أنّها تضحي بحياتها.
- تعني أنّ الحبّ هو من يعطي الشجاعة والإقدام على الموت وليس الشعور بالذنب؟.
- تماماً، الحبّ متطرف فعندما تحبّين بصدق تقومين بخيارات جنونية وغير منطقية للآخرين لأنّ من يتخذ القرارات هو القلب وليس العقل.
- الحبّ هو دائماً ضحية الكره والغيرة والحقد والانتقام.
- لكنّه قد يكون السبب في هذه المشاعر أيضاً. إنّه سيف ذو حدين فإن كان متبادلاً فهو الأجمل في الوجود، أمّا إن لم يكن متبادلاً فهو السبب في ظهور تلك المشاعر، وهذا ما دفع أمنريس للتضحية بحبيبها فقد سيطرت عليها مشاعر الغيرة والحقد والانتقام والتي نشأت بسبب حبّها الكبير له.
- لقد قتلته لأنّها تحبّه؟
- نعم هذا هو جنون الحبّ، فهي تفضل موته على رؤيته مع امرأة أخرى.

- الحبّ أيضاً هو من دفع عايدة للموت مع حبيبها فهي لم تتحمل الحياة بدونه، لكن هل من الممكن أن تتصرف عايدة كأمنريس وأمنريس كعايدة لو كان الوضع معكوساً؟
- هذا سؤال صعب، ربما نعم وربما لا فنحن شخصيات مختلفة وردود أفعالنا تعتمد على شخصياتنا، ومن خلال القصة لا نرى الجوانب الأخرى لتلك الشخصيات فلا أستطيع التحديد.
- إنه اختبار صعب وأتمنى ألاّ يضطر أيّ إنسان إلى مواجهته يوماً.
- إنّها الحياة ولا أحد يعلم ما ينتظره. هيّا بنا نذهب فقد تأخر الوقت.

أوصلها إلى بيتها وقبل أن يغادر عانقته عناقاً حاراً وهي تقول: أنا سعيدة وممتنة جداً لأنّنا من المحظوظين في الحبّ، ولن نضطّر إلى مواجهة عواقب وجود أمنريس في حياتنا.

شعر بانقباض في صدره لدى سماعه لهذا الكلام وقال: لو افترضنا وجود هذا الشخص بيننا ماذا ستكون ردة فعلك؟.

لم تشعر بنفسها إلاّ وهي تشدّ قبضتها حول عنقه وتقول له: أرجوك لا تفكر في هذا الأمر، لا يمكنني تخيل شيء قد يكسر قلبي أكثر من هذا.

أراد فرات عيش حياة جديدة معها ونسيان كلّ شيء قبلها. حياته الماضية، اسمه، السنوات التي مرّت عليه بدونها، إنّه يحبّها بجنون أمنريس وقوة رداميس ووفاء وتضحية عايدة.

اقترب منها أكثر ووضع أصابعه تحت ذقنها برقة، بينما نظرت هي إليه بخجل فأحسّ مثل الأرض التي تستقبل الربيع بفرح، ولم يعد قادراً على مقاومة السحر والبراءة في تلك العينين فقبّلها قبلة مليئة بالشغف، وأصبحا وكأنّهما أرض عطشى قد أنعشها المطر، لا يوجد شيء قادر على أن يروي عطشه لحبّها فقلبه يذوب في نيران عشقها.

غادر هو بينما بقيت هي تفكّر بكلّ ما حدث، كان يوماً رائعاً بلا شك فطعم قبلته مازال على شفتيها، ورائحته ممتزجة برائحة جسدها فعندما جلسا في المسرح المفتوح أحسّت ببعض البرد فحمل سترته ووضعها حول كتفيها، وعلى الرغم من هذه السعادة كانت فكرة ظهور شخص كأمنريس بينهما تخيفها ولم تعلم هل سيصمد حبهما في وجه عاصفة من هذا النوع؟ هل سيكون في مقدورهما أن يبقيا عاشقين كعايدة ورداميس ويضحيا بكل شيء في سبيل هذا الحبّ؟.

(8)

ليلة المعرض

هناك أحلام لا نتجرّأ على عيشها فندفنها عميقاً خوفاً من سطوتها حتى لا يعود في وسعنا الوصول إليها، تبقى هناك كالجمر الساكن منتظرة ريحاً تعصف بخفايا القلب وتشعلها، منتظرة ولادة جديدة من رحم الأمل.

كانا يرقصان بنفس شغف الليلة الأولى لتعارفهما عندما رنّ هاتفها وأيقظهما من ذلك الحلم الجميل، وعندها عادا إلى الواقع واستعدت توليب للمغادرة من أجل المعرض.

أراد فرات مرافقتها ولذلك ذهب إلى غرفته ليستعد وبعد مرور بعض الوقت قدم إليها حاملاً قميصين وسألها بمنتهى العفوية هل أرتدي هذا القميص أم ذاك؟. دهشت لسؤاله هذا فعندما كانا معاً كان دائماً يطلب رأيها في ثيابه، واليوم عاد ليسألها من جديد.

أجابت: هل تسألني بعد مرور كل هذا الوقت ماذا سترتدي؟.

أعاده كلامها إلى الواقع فارتبك وقال: بما أننا ذاهبان إلى المعرض أردت التأكد من أنّني أرتدي الثياب المناسبة، لا تهتمي سأرتدي هذا القميص.

استدار عائداً إلى غرفته، لكنّها تبعته وهي تقول: ارتدي القميص الأزرق يليق بك كثيراً هذا اللون.

ابتسم وقال من دون أن يلتفت لها: شكراً لك.

قررت توليب متابعة الحوار بينهما والدخول ضمن المنطقة المحظورة، فاستجمعت شجاعتها وقالت له: هل يمكنني سؤالك عن شيء يحيّرني منذ قدومي إلى اسطنبول؟

- طبعاً يمكنك سؤالي ما تشائين.
- لماذا تعيش في اسطنبول ولم تعد إلى حيث يجب أن تكون، ألم نخسر كل شيء من أجل ذلك؟.

كان سؤال لم يتوقعه أبداً، ومن حسن الحظ أنّها كانت خلفه ولم ترَ ملامح وجهه التي تغيرت فجأة.

عضّ على شفته السفلى بقوة وأغلق قبضة يديه بإحكام، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال لها من دون أن يلتفت هكذا تطلّب الوضع.

ذهبا إلى الفندق كي تقوم بتغيير ملابسها والاستعداد ومن هناك توجها إلى المعرض. بدأت تشعر بالتوتر كلما مرّ الوقت ورأت الناس يتوافدون، لكنّ وجود فرات قربها ساعدها على تجاوز الأمر بسهولة أكبر، ومع مرور الوقت بدأت تسترخي وتستمتع بالأجواء.

كانت مشغولة عنه بالمحيطين، لكنّه لم يرَ أحداً آخر سواها، وعندما تقدم أحد الصحفيين لإجراء حوار معها، وقف قريباً منها وأخذ ينصت إليها باهتمام وحبّ.

أول سؤال سألها إيّاه الصحفي ما هو أهم شيء في التصوير الفوتوغرافي؟

أجابت التصوير الفوتوغرافي يعني الرسم بالضوء، لذلك من أهم الأشياء التي يجب أن يهتم بها المصور هي الإضاءة ، عليه أيضاً أن يرى الأشياء التي لا يراها الآخرون، فالمصور مهمته أن يرى الجمال الكامن في الأشياء ويعمل على إظهاره بطريقة تبهر الآخرين.

سؤاله الثاني لها كان ما هو الشيء الذي يميز مصور عن آخر؟

أجابت كما أنّ لكلّ رسام بصمة خاصة به نعرفه بها من خلال أسلوبه وألوانه فالتصوير شيء مشابه لذلك، فأنت تعرف ذلك المصور من غيره من خلال الألوان الخاصة به، فإذا كنت من المغرمين بعالم التصوير فحتماً

تستطيع أن تعرف أسماء بعض المصورين المشهورين من رؤية أعمالهم فقط.

أما سؤاله الثالث فكان عن المصورين الذين تنظر باهتمام إلى أعمالهم وماهو المجال الذي يركزون عليه؟

أجابت هناك العديد من المصورين الرائعين وليس من الممكن ذكرهم جميعاً لذلك سأختار بعضهم. أولاً جيمس ناتشوي وهو من المصورين الذين يهتمون بتصوير الحروب، أعماله مؤثرة وتلفت نظر الآخرين للمآسي التي يعيشها العالم، ومن الصور التي اشتهرت له والتي نالت جائزة الصحافة العالمية هي الصورة التي التقطها لأم صومالية تستعد لدفن ابنها الذي مات جوعاً. ثانياً جوي لورانس المشهور بالتصوير الوثائقي والمصنف ضمن أفضل ثلاثين مصور في مجال التأثير الاجتماعي للتصوير الفوتوغرافي، وهو يهتم كثيراً بالنوعية والإضاءة. ثالثاً اريك آلاماس المشهور بتصوير الدعاية والإعلان، وهو لديه أسلوب مميز حيث يصور العديد من الصور ويجمعها في صورة واحدة. أخيراً بيتر ليك المعروف بتصويره للطبيعة وأكبر مثال على إبداعه هو صورة الشبح التي أخذها لمغارة يخترقها ضوء الشمس في صحراء أريزونا والتي تعكس التلاعب بالضوء ونقل الطبيعة كما هي.

كانت قد انتهت من لقائها الصحفي، عندما حدث ما لم يكن في الحسبان ورأت أمامها شخصاً لم تتوقع وجوده أبداً. تقدمت منه بابتسامة عريضة وهي تقول: ماذا تفعل هنا؟.

- هل يعقل ألاّ أكون بجانبك في يوم كهذا؟.
- أنا سعيدة جداً لأنّك قرّرت القدوم.

شعر فرات بمزيج غريب من المشاعر، فهو سعيد لرؤية صديقه الذي لم يره منذ زمن طويل، وبنفس الوقت غاضب من قدومه. كان كلاهما غير سعيدان من هذه المفاجأة وقد أدركت توليب هذا عندما رأت نظراتهما لبعضهما البعض. تقدم آدم ومدّ يده بالسّلام لفرات، كان كلاهما يحاولان ضبط النفس لكنّهما لم يستطيعا إخفاء التوتر الذي ظهر جلياً عليهما. بادر آدم بالقول من الجميل أن أراك بعد هذا الغياب، ماذا تفعل هنا؟ لم تخبرني توليب أنّها التقت بك.

لم ترد توليب أن يعلم آدم بلقائها بفرات لذلك قررت التدخل قبل أن يقوم فرات بالإجابة وقالت: عندما علم بالمعرض قرّر الحضور ومفاجأتي.

أراد فرات التحدث مع آدم على انفراد لذلك قال لتوليب: أعتقد أنّهم يبحثون عنك، اذهبي وتكلّمي معهم وأنا سأبقى هنا مع آدم.

بقيا وحدهما وكلاهما ينظر للآخر نظرات مليئة بالتساؤلات، كانا يرغبان بمعرفة الكثير من الأشياء لكن بنفس الوقت خائفان من سماع الأجوبة.

أخيراً تحلى فرات بالشجاعة وبادر قائلاً

- لم تخبرني بقدومك، كنت على الأقل استقبلتك في المطار. لقد خاب ظنّي بك.
- أظن أنّنا نتشارك نفس الرأي.
- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟.
- لماذا أنت هنا؟ ألم أطلب منك أن تبقى بعيداً عنها وألاّ تراها.
- أنا لم أعطك وعداً بذلك، وإن قررت رؤيتها فلا أحد يستطيع منعي من ذلك.
- أنت تثبت من جديد بأنّك رجل أناني ولا تفكر إلا بنفسك.
- وماذا عنك؟ هل ستبقى الرجل الذي يحاول استغلال الظروف لصالحه؟.
- دعني أذكّرك، وجودي في حياتها سببه أنت، فإن كنت ستلوم أيّ شخص فعليك لوم نفسك.
- آدم أرجوك، توليب مختلفة عن بقية النساء اللواتي مررن في حياتك، ابتعد عنّها فأنا لا أريدها أن تتأذى.

- من تظن نفسك لتطلب مني أمر كهذا؟ أنا أفعل كل شيء ولا أدع أحد يؤذي توليب.
- أنت تعلم أن أفعالك المستفزة هذه ستنهي صداقتنا.

نظرت توليب إليهما فرأت التوتر بادياً عليهما وكأنّهما على وشك العراك، فتقدمت بسرعة وقالت لهما: ماذا تفعلان هل ستتعاركان في المعرض؟.

وصول توليب في الوقت المناسب منع الأمور من الانزلاق إلى حافة الهاوية وأعاد الصديقان إلى صوابهما، فسيطرا على غضبهما ورافقا توليب كظّلها حتى انتهاء المعرض، وعندما كانوا على وشك المغادرة قال فرات لتوليب: تعالي لأوصلك إلى الفندق فلا بد أنّك متعبة بعد هذا اليوم الطويل.

أمسك آدم بيدها وقال له: لا داعي لذلك، أنا مقيم في نفس الفندق وسأرافقها.

حاول فرات تمالك نفسه وقال: بما أنّه سيذهب معك إذاً لا داعي لقدومي، تصبحان على خير.

أوقف آدم سيارة أجرة من أجل المغادرة لكن قبل صعودهما قالت توليب لفرات: ما رأيك أن نذهب معاً للغداء في الغد، أعتقد أنّه علينا الجلوس والتحدث حول ما جرى بينكما اليوم. وافق فرات على مضض ثم غادر.

كانت تلك الليلة صعبة على ثلاثتهم، فجميعهم مشغولون بما يدور في رأس الآخر. توليب لم تعلم السبب الحقيقي وراء قدوم آدم، ولم تصدق أنّه قطع كلّ تلك المسافة من أجل المعرض فقط. من جهة أخرى شاهدت كيف تشاجر مع صديقه ولن ترتاح قبل معرفة السبب وراء ذلك. أمّا آدم فقد كان غاضباً من قدوم فرات لرؤية توليب ولسبب ما شعر بأنّهما التقيا قبل المعرض ويخفيان الأمر عنه، ونظراً لخطورة الوضع قرّر أن يقنعها بالمغادرة معه في أسرع وقت ممكن.

فرات لم يكن في وضع أفضل منهما، فتوليب تشعر بوجود مشكلة بينه وبين آدم وتريد معرفتها لكنّه لا يستطيع إخبارها، كذلك هو قلق من تواجد آدم قربها ولا يدري بعد ما طبيعة العلاقة التي تربطهما.

في تلك الليلة اختلطت الأوراق وكانوا جميعهم يتطلّعون لمعرفة الأسرار، لا أحد منهم يعلم من يمتلك الورقة الرابحة، لكنّ الشيء الوحيد الواضح كان رغبة الجميع في الفوز والحصول على الحبّ.

في صباح اليوم التالي خرجت توليب وآدم وجلسا في أحد الأماكن المطلّة على البوسفور. كانت تريد معرفة الأجوبة على الأسئلة التي لاحقتها منذ

الليلة الماضية لذلك بادرت في سؤاله: لماذا أتيت إلى اسطنبول؟ هل من أجل المعرض حقاً أم أن هناك سبباً آخر؟.

فكر آدم قبل الإجابة ولم يعلم إن كان هذا هو الوقت المناسب للقيام بالخطوة التالية لكنّه استجمع شجاعته وأجابها: أردت أن أكون بجانبك من أجل المعرض..... وأيضاً لأنني قلقت عليك.

- قلقت علي!!! لكن لماذا؟.
- عندما طلبت رقم فرات علمت أنك ستكلمينه وخشيت مما سيحدث إن خذلك مجدداً. ماذا لو أحزنك وأنت هنا وحدك دون عمتك وألين؟.

شعرت توليب بالامتنان له مجدداً فهو يحميها من كل شيء، وطوال السنوات الماضية كان دائماً ملاكها الحارس وصديقها العزيز الذي لا تستطيع تخيل الحياة من دونه، وبدون تفكير طويل وضعت يديها فوق يديه وضغطت عليهما بلطف وهي تقول: شكراً لأنك تفكر بي دائماً، لكن لا داعي للقلق فأنا بخير وأستطيع تحمل أي شيء بفضلك أنت.

- الآن أخبريني ماذا شعرت عند رؤيته مجدداً؟.
- جزء مني كان سعيداً لرؤيته مجدداً لا أنكر ذلك لكن جزء آخر كان متألماً وخائفاً فقد أعادت رؤيته الألم الذي سببه لي في الماضي.

- سأكون بجابنك مهما حدث، ولن أسمح لفرات بإيذائك مجدداً.

ابتسمت له بحبّ وهي تقول: أعلم ذلك، لكنّه لن يؤذيني لذلك توقف عن القلق. الآن لنأتي إلى السؤال الأهم ما الذي جرى البارحة بينك وبينه ولماذا كنتما على وشك العراك؟.

- رؤيته البارحة ذكّرتني بما فعله لك في الماضي فغضبت.
- لا أريدكما ان تتعاركا بسببي، ففي النهاية أنتما صديقين منذ زمن طويل حتى قبل دخولي إلى حياتكما.
- لا تقلقي سأتكلم معه اليوم ونحل الأمر، أعدك بذلك.
- آدم هناك طلب أخير أريده منك.
- ماهو؟
- لا تخبر عمتي وألين بلقائي به، فأنت تعلم أنّهما لا ترغبان بسماع أي شيء عنه وستغضبان إذا علمتا بلقائي به.
- حسناً لن أخبرهما.

رنّ هاتف توليب وقطع كلامهما، وعندما نظرت إليه رأت رسالة من فرات يقول فيها " **أنا في الجامعة اليوم، هل تستطيعان القدوم إلى هناك عند الظهيرة لتناول الغداء؟".**

قالت لآدم: فرات في الجامعة، سنذهب للقائه في الساعة الثانية عشر ونصف.

- ماذا تريدين أن تفعلي حتى ذلك الوقت؟.
- هل تريد التجوّل في اسطنبول؟.
- لم لا فقد قطعت كل تلك المسافة لزيارة هذه المدينة.

خرجا للاستمتاع بجمال هذه المدينة وفي تلك الأثناء كانت تفكر كم أنّ آدم مختلف عن فرات فهو يحبّ المزاح ويأخذ الأمور ببساطة وسخرية، ومهما كانت حالتها النفسية ينجح دائماً في إضحاكها، بينما فرات شخص جدّي في كلامه وتصرفاته وليس لديه ذلك الجانب الفكاهي الذي يتمتع فيه آدم، ويمكن القول جزء منها يحبّ فرات بشخصيته الجدّية والرزينة، وكلامه العميق الذي يسحر عقلها، وجزء آخر يحبّ آدم ببساطته ومزاحه، وشخصيته المحبّبة التي تجعلها دائماً تشعر بأنّها حيّة ومليئة بالطاقة.

من دون أن تشعر وجدت نفسها تنظر إليه بطرف عينها وتتأمله. كان رجلاً وسيماً ومن الصعب عدم رؤية صفاء البحر في عينيه الواسعتين، وسواد الليل في شعره المنسدل على جبينه بشكل فوضوي.

كانت سعيدة لوجودها معهما في نفس المدينة لكن بنفس الوقت خائفة من تواجد ثلاثتهم في مكان واحد وسط هذه الفوضى من المشاعر والأحاسيس.

تجوّلت مع آدم إلى أن حان موعد لقائهما بفرات وبعدها توجها للقائه، ولدى وصولهما وجداه يتكلم مع إحدى النساء فانتظراه جانباً ريثما ينتهي، لكنّه أشار إليهما للتقدم وعرّفهما على تلك المرأة، وقبل انصرافهم قام آدم بتصرف مفاجئ وطلب من المرأة مرافقتهم.

رفضت المرأة في البداية لكنّ إصرار آدم وضع فرات في موضع محرج فقام بدعوتها. لم تعلم توليب ما هو السرّ وراء اهتمام آدم المفاجئ بهذه المرأة، وعدم التوقف عن طرح الأسئلة عليها؟ هل يسعى وراء الأمر الذي تريد معرفته هي أيضاً؟ كان لديها فضول كبير لمعرفة طبيعة علاقة التي تربط هذه المرأة بفرات، فقد لاحظت كيف تتكلم عنه وتنظر إليه، وإحساس الأنثى بداخلها أخبرها أنّ هذه المرأة معجبة به.

كانت تنصت باهتمام إلى كلامها مع آدم وتراقبها من دون الاشتراك في الحديث، فرات أيضاً كان صامتاً ويبدو غير سعيد من تواجد تلك المرأة برفقتهم. فكرت توليب لماذا يتصرف بهذه الطريقة يا ترى؟ هل هناك شيء يحاول إخفاءه؟.

فجأة قالت المرأة لآدم، لم يخبرني فرات بقدوم أصدقائه من سيدني، وإلاّ كنّا أعددنا برنامجاً خاصاً لنعرفكما على اسطنبول. تابعت كلامها وهي تنظر إلى توليب لا أدري إن كانت هذه المرأة الجميلة حبيبتك أم لا، لكن عليّ القول بأنكما لائقان جداً وتوجد هالة خاصة حولكما.

تفاجأ آدم من كلامها هذا وقبل أن يجيب، قال فرات بشيء من الحدّة وهو ينظر مباشرة في عيني آدم إنّها ليست حبيبته.

قالت المرأة أنا آسفة حقاً يا توليب، لكن عندما رأيتكما معاً شعرت بانجذاب كبير بينكما.

ابتسمت توليب وقالت في محاولة منها لتخفيف حرج المرأة، إنّني أعذرك فكيف تستطيع أيّ امرأة تجاهل رجل بهذه الوسامة.

شعر آدم بالسعادة لدى سماعه لهذا الكلام على عكس فرات الذي انزعج أكثر وأكثر وكان يحصي الوقت لانتهاء هذه الجلسة.

أتى الطعام وتناولوه بهدوء دون الخوض في أحاديث جديدة، وعندما انتهوا نظرت المرأة إلى ساعتها وقالت لفرات: يجب أن أعود إلى الجامعة فلدي محاضرة، هل ستعود الآن؟.

أجاب: لا أنا سأبقى هنا.

بقي الثلاثة وحدهم أخيراً، وكلّ منهم ينتظر الفرصة للتكلّم مع الآخر، فهل ستكشف جميع الأوراق اليوم؟. هل ستعطيهم الحياة فرصة جديدة لنسيان أخطاء الماضي والبدء من جديد دون حزن أو ألم أو غضب.

جميعهم كانوا يحلمون بالسعادة فمن نصيب من ستكون هذه السعادة؟

(9)

قبل هبوب العاصفة

أحببتك فلامست النجوم ودرت في مدارات الكواكب، ونثرت أحلامي على قمم الجبال لتحملها الرّياح إلى كلّ الأماكن، لكنّه الفراق مكتوب علينا، فهل يعود حبّنا ربيعاً بعد أن أغرقنا كل المراكب.

بعد مرور عام تقريباً على وصولها لهذه المدينة، تعثّرت بحبّ لم تتوقع وجوده في هذه الحياة، حبّ أدهشها وأربك قلبها، فبعد أن أعلنت توبتها عن العشق آخر شيء كانت تنتظره هو عشق عاصف يغيّر مجرى حياتها.

كان لدى فرات الكثير من السحر، فهو يشبه أبطال الروايات ووجوده خارج ذلك العالم هو تحدي لها من الحياة وكأنّها تختبر صبرها وقدرتها على المقاومة.

مع الحياة كلّما اتخذنا قرارات حاسمة ومصيرية بشأن العشق تحلو لها معاكستنا، فإذا أغلقنا جميع الأبواب أمامه ولا درب آخر لديه للوصول إلينا،

فإنه سيجد نافذة مهملة نسينا إغلاقها يوماً لانشغالنا بإغلاق الأبواب ويدخل منها.

قبل رؤيتها لفرات، أعطت الحبّ فرصة لكنّه خذلها، ولذلك أقنعت نفسها بأنّه لا وجود للرجل الذي تبحث عنه، لكنّ القدر تحداها بحبّ أشبه بمعجزة، حبّ أربك حواسها وجعل عقلها عاجزاً فمعه عرفت أن لكلّ حبّ أوان وأوان حبّها قد حلّ مع ربيعه، ما قبله كان فقط محاولات خجلة للتعرف على الحبّ.

مضت الأيام وتوليب تعيش أجمل أيام حياتها مع فرات، وفي أحد الأيّام ذهبا لأحد المطاعم لتناول الطعام وهناك لاحظت بأنّ الفتاة الجالسة على الطاولة المقابلة لهما تلاحق فرات بنظراتها. علم فرات دون جهد كبير السبب وراء استياء توليب فقام بشيء فاجأها ولم يتصرف كما يفعل معظم الرجال، وتبجّح أمامها بأنّ هناك امرأة معجبة به، وإنّما تجاهل الفتاة وطبع قبلة على خدّها وكأنّه يقول لها أنا أحبّ هذه المرأة ولا أهتم لأحد آخر سواها، وعلى ما يبدو فهمت الفتاة الرسالة وغادرت. تصرّف يومها كرجل شهم يحمي امرأته ويصون كرامتها، وقد زاد ذلك من إعجابها به. كان رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى.

قالت توليب وهي تشعر بشيء من الغيرة يبدو أن هناك الكثير من المعجبين حولك.

رد ضاحكاً وقد بدا أنّ كلامها هذا قد أخجله قليلاً

- هل تغارين حقاً؟.
- الموضوع ليس موضوع غيرة لكنّ تصرف الفتاة لم يكن لائقاً، فهي لم تحترم وجودي.
- لا تهتمي فمن لا يعرف حدوده نحن نريه إيّاها.

كانت علاقتها به تزداد عمقاً يوماً بعد آخر، كان بها جوع دائم لحضوره وعطش كبير لحبّه، عطش عمره سنين من الانتظار، كأنّها لم تكن على قيد الحياة قبله وإنّما على قيد انتظار الحياة.

قلقت عمّتها فريدة من هذا التعلق، فهي لم تنسى ما حدث معها في الماضي وتخشى عليها من خيبة أمل جديدة، فتوليب امرأة عاطفية وحسّاسة وليس لديها القوة لتحمّل جرح آخر، خصوصاً أنّ علاقتها بفرات قد أصبحت قويّة وكأنّها تعرفه منذ أعوام.

تلك الصدمة التي عاشتها توليب في السابق أدخلتها في اكتئاب شديد، ولأسابيع كانت بالكاد تأكل وقليلاً ما تخرج، وقد قضت فريدة وقتاً طويلاً

وهي تحاول إعادتها إلى الحياة، كانت تضغط عليها للخروج لكنّ محاولاتها اصطدمت بالمجتمع الفضولي، ففي كل مرة تخرجها فيها لتنسى ما حدث يلتقيان بمن يفتح الجرح مجدداً، فتعود للانطواء والحزن.

أخيراً طلبت توليب منها السماح لها بالسفر بعيداً، فهي غير قادرة على تجاوز هذه الأزمة هناك. كان من الصعب عليها العيش بعيداً عنها لذلك كان هذا القرار يشملها هي أيضاً، ولكي تعطيها الفرصة للتعافي من دون حشر الآخرين أنوفهم فيما لا يعنيهم وافقت على فكرة السفر وهكذا سافرت إلى مكان بعيد هرباً من قدر آلمها، لكنّها لم تدرِ أنّها تهرب من قدر لآخر.

طلبت فريدة منها إحضار فرات لتتعرف عليه، فقد أرادت أن تتأكد من أنّه الرجل المناسب، وبعد أن أخبرته توليب برغبة عمّتها قي لقائه، أتى لزيارتها، طلبت فريدة من توليب أن تعدّ القهوة لهم وفور خروجها قالت لفرات: أريد التكلم معك على انفراد، لذلك هل تستطيع القدوم عندما تكون توليب في الجامعة؟. استغرب طلبها هذا لكنّه وافق عليه فقد كان لديه فضول كبير لمعرفة ما ستقوله العمّة.

لم تكن تلك الزيارة طويلة كما توقع فقد علم أنّ العمّة لن تتحدث عمّا تريده بوجود توليب، وحدسه أخبره بأنّ الزيارة القادمة ستكون طويلة.

بعد بضعة أيام أتى مرة أخرى لزيارة العمّة، كان مرتبكاً ل لكنّ فريدة طمأنته وساعدته على الاسترخاء. قالت له: أنا آسفة لدعوتك بهذا الشكل، لكنّ ما سأقوله مهم للغاية، ولم أخبرك به أمامها لأنّ الحديث عن الماضي يزعجها، وأنا لا أريد أن أسرق منها سعادتها الحالية.

- تفضلي سيدتي إنّني أسمعك.
- توليب هي كل ما أملك في هذه الحياة، وعليّ التأكد من أنّك لن تجرحها، لذلك عليك معرفة كل شيء عن حياتها وهكذا ستفهم لماذا أخشى عليها كثيراً.

أخبرته فريدة بقصة توليب كاملة حتى وصولها لسيدني، ثم قالت له: إن كنت تحبّها حقاً كما تقول، فأريدك أن تعدني بأن تكون صادقاً معها دائماً ولا تحزنها.

كان بلا شك يعشق توليب ولا يستطيع تخيل حياته من دونها، لكنّه في الوقت الحالي يخفي عنها سراً خطيراً، فكيف السبيل إلى ما تطلبه العمّة وسط هذه الأسرار، ماذا سيحدث إن علمت بهذا السر قبل أن يستطيع التخلص منه؟ كيف سيحميها من الحزن عندها؟ ماذا لو لم تسامحه لإخفائه

هذا عنها؟. لاحظ أنّ العمّة تنتظر ردّه فقال لها: سأحبّها كما لم أحبّ أحداً من قبل، وسأفعل ما بوسعي كي تكون سعيدة.

غادر المنزل والأفكار تتصارع في رأسه، كان عليه التحرك بسرعة وإنهاء الموضوع الآخر قبل معرفة توليب به، لذلك ذهب فوراً للقائها وأخبرها بالقرار الحاسم الذي اتّخذه.

صدمت عندما علمت بأنّه سيسافر لبضعة أسابيع في زيارة عائلية، فلم يخبرها بأنّه يخطط للذهاب، وعلى الرغم من حزنها لذهابه كان عليها تقبّل ذلك فهذه عائلته ومن حقّه السفر لرؤيتهم.

بعد أسبوع من تلك الحادثة تقابلا للمرة الأخيرة قبل سفره، وقبل أن يودّعها رافقها إلى محطة القطارات، كان المكان مزدحماً لكنّهما شعرا وكأنّهما وحدهما في ذلك المكان، وعندما وصلا قرب البوابات الآلية التي عليها العبور منها إلى الرصيف المطلوب، أمسك بيديها وهو يتفقد جدول المواعيد على الشاشة أمامه، وقال لها وعينيه لا تفارقان عينيها

- لقد حان وقت الوداع الآن. القطار قادم بعد خمس دقائق.
- لا أريد الذهاب، أريد البقاء معك.
- توليب أرجوك تعرفين أنّني سأحزن ولن أستطيع الذهاب.

- لماذا تسافر الآن ألا تستطيع تأجيل سفرك؟ أعلم أنّني أتصرف بأنانية وهذه عائلتك، لكنني لا أريد الابتعاد عنك وقد وجدتك حديثاً.
- تعرفين أنّني أرغب بالبقاء معك أيضاً، لكن يتوجب عليّ الذهاب لبعض الوقت، أعرف أنّه مؤلم لكلينا لكنّي سأعود قريباً، هيا اذهبي الآن القطار سيفوتك إن تأخرت.

نظرت إلى عينيه كالأطفال الصغار وهي تقول لن أذهب.

- كم أنت عنيدة، انظري لقد فاتك القطار الآن.

أغلق عينيها بيديه ثم طبع قبلة صغيرة على شفتيها وهو يقول: لا تنظري إليّ هكذا.

أزالت يديه عن عينيها وعانقته عناقاً حاراً، وفي تلك اللحظة أحسّت بأمان كبير وراحة وتمنّت لو تبقى في حضنه طوال العمر، هو أيضاً أحس بشعور غامر ولم يستطع منع نفسه من القول: عناقك حنون ودافئ ومليء بالحبّ كعناق أمي. ماذا أفعل بك الآن؟ أنت لن تغادري إلاّ إذا ذهبت معك، أليس كذلك؟.

أمسك بيدها وذهبا معاً إلى بيتها، وهناك ودّعها وسط دموعها التي قالت له بتوسل لا تذهب، كانت وكأنّها تخشى فقدانه، لكنّ فرات استجمع نفسه رغم هذه التوسلات وغادر، فكل ما يفعله الآن هو من أجلها.

غادر وبقيت هي وحيدة كشاطئ من غير بحر، كليلة من دون قمر، كحياة من غير نفس، ورغم أنّه تركها قبل دقائق قليلة فقط كلّ ما كانت تفكر فيه هو متى سيعود مجدداً؟ فعالمها ينير فقط بوجوده.

(10)

الاعتراف المتأخر

أثناء رحلته لاكتشاف الحبّ، أدرك أنّه لم يعرف معنى الحياة قبل عيشه لذّة ذلك الشعور، وأنّه مهما خان قلبه وتجاهل نداءات العشق، سيأتي يوم يستسلم فيه رغم الخوف، يوم يتمرد فيه قلبه على غروره، وللمرة الأولى سينطق بالكلمة التي لم يقلها لأنثى من قبل.

جلس ثلاثتهم صامتين حتى قررت توليب البدء بالكلام، نظرت إليهما وكأنّها تستجوبهما وقالت: بما أنّنا بقينا وحدنا الآن، أخبراني ماذا جرى بينكما البارحة ولماذا كنتما على وشك العراك؟

نظرا إلى بعضهما البعض ولا أحد منهما يريد أن يبادر بالحديث، وعندما طال صمتهما قالت توليب: ما الأمر؟ من منكما سيبدأ الكلام؟.

قرّر آدم أخذ المبادرة فقال لها: لقد انزعج فرات لأنّني لم أخبره بحضوري. هذا هو كل ما في الأمر.

نظرت توليب إلى فرات وكأنّها تنتظر منه تأكيداً على هذا الكلام فقال: نعم هذا صحيح فأنا لم أتوقع رؤيته أمامي هكذا.

أحسّت توليب بأنّهما لا يقولان الحقيقة لذلك سألتهما مجدداً هل لي علاقة بشجاركما؟ نظر كلاهما إليها بدهشة فلم يتوقعا أبداً أن تقول كلاماً كهذا، وعندما رأت علامات الدهشة باديةً عليهما تابعت قائلة الآن تأكّدت بأنّني السبب في شجاركما، لا بدّ أنّ آدم غضب عندما رآك في المعرض وأنت كذلك أليس هذا ما حدث؟.

بقي الاثنان صامتان فوضعت توليب إحدى يديها فوق يد آدم واليد الأخرى فوق يد فرات، ثم قالت موجهة كلامها لآدم لا داعي لخوفك فالماضي بقي في الماضي، دعنا لا نفتح تلك الصفحات مجدداً، سأشعر بسوء كبير إذا حدث شيء لصداقتكما بسببي، فأنت صديقه قبل أن تكون صديقي.

بعد ذلك حوّلت نظرها إلى فرات وتابعت قائلة إذا لم تنهيا هذا الخلاف الآن فأنا لن أتكلّم معكما مجدداً، هل هذا واضح؟.

خرجت توليب وتركت الصديقان وحدهما ليحلا هذه المشكلة دون تدخّلها. كانا في صراع كبير فكلاهما يحبّها ويريد حمايتها، لكن عليهما الآن إيجاد حلّ لهذه المشكلة وإلاّ سيخسرانها، فهي لن تتكلم معهما مجدداً إن بقيا على

خلاف. أخيراً قرر فرات البدء بالكلام فقال لآدم: هل تظنّ حقاً أنّني قد أؤذيها؟ نعم آلمتها في الماضي لكنّ ذلك حدث دون إرادتي ولن يتكرر.

- أنت تصرّ على أنّك لم ترد أذيّتها، لكنّك أخفيت الأمر عنها منذ البداية ولم تعطها الفرصة لتختار. لقد تصرفت بأنانيّة وفي النهاية تخليت عنها وتركتها وحدها لتواجه ألم الفراق.
- أنت تحبّها وتغار عليها ولذلك تتصرّف معي بتلك الحدّة..
- هذا صحيح أنا أحبّها أمّا أنت فلم تحبّها بما يكفي، فلو كنت مكانك كنت تخليت عن كلّ شيء من أجلها حتى حياتي.
- أنا أيضاً أتخلى عن حياتي من أجلها لكنّها أمّي، وأنت لن تفهم ذلك بسبب علاقتك السيئة مع أمّك.

تألّم آدم من كلام صديقه وكأنّه غرس خنجراً في صدره، فذكرى أمّه هي الشيء الوحيد الذي يؤلم روحه ولا يرغب أبداً في الكلام عنها، كان قد نشأ في بيت غاب عنه الحبّ ومنذ صغره يرى الخلافات بين والديه، ويكمن القول بأنّ طفولته ماتت في اليوم الذي تركته فيه أمه، ذلك اليوم تركت والده محطماً ومطعوناً برجولته بينما حوّلته هو إلى طفل سُرقت منه طفولته ولاحقاً إلى رجل فَقَدَ إيمانه بحبّ الأنثى.

حاول آدم استجماع شجاعته وقال في نبرة فيها الكثير من التحدي

- أحياناً عليك أن تكون أنانّياً إلى تلك الدرجة وأنا كذلك أمّا أنت فلا تملك الجرأة، وصدقاً لا أفهم كيف استطاعت إيجاد المبررات لك وحتى مسامحتك على فعلتك. إنّها طيبة ونقية ولكنّ حبّها لك هو نقطة ضعفها ولذلك سأحميها منك، أنت لا تنفعها وإنّما تؤذيها.
- كيف تستطيع معرفة ذلك؟.
- خلال السنوات الأربع الماضية أنا من كنت بجانبها، أنا من رأيت معاناتها وحزنها، أمّا أنت فلم تفكر كيف تعيش وكيف هي حياتها؟.

كان آدم هو من غرس الخنجر في صدر صديقه هذه المرّة، فالجميع اعتقد أنّ فرات غادر، وترك توليب دون النظر وراءه، لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً فهو لم ينساها يوماً، كان يتابع أخبارها وأعمالها وأسفارها لكن من بعيد فليست لديه الشجاعة أو الجرأة للعودة إليها، ولذلك أقنع نفسه بأنّه خسرها إلى الأبد، لكنّها أتت مجدداً وأعطته أملاً صغيراً بفتح الأبواب المغلقة.

أخيراً تمالك أعصابه وصمم على متابعة الحرب والدفاع عن فرصته الأخيرة معها فقال لآدم: امتلك الجرأة لمرة واحدة وقل بأنّك تخشى تواجدي قربها لأنّك تعلم بأنّها تحبّني.

- نعم أخشى عليها منك، هل هذا ما تريد سماعه؟.
- هل أنت الرجل الذي لا يثق بأيّ امرأة، ماذا جرى حتى تغيرت؟ لقد طلبت منك البقاء قربها لأنّني وثقت بك فأنت صديقي، كيف تفعل هذا بي؟.
- أنا لم أخنك يا صديقي بل أنت من تخليت عنها وتركتها، هل أردّتها أن تعيش على ذكراك ؟ من المؤكد أنّك توقعت دخول رجل آخر إلى حياتها.
- معك كلّ الحق في هذا الكلام، لكن لا يجب أن تكون أنت ذلك الشخص فأنت صديقي، وتوليب هل تحبّك هي أيضاً؟

توقف قلبه بانتظار سماع الإجابة فكلمة نعم ستنهي أمله الصغير بعودتها إليه.

- لا أدري فأنا لم أخبرها بعد عمّا أشعر به تجاهها.

شعر بالراحة قليلاً لسماع هذا الجواب. صحيح أنّه لا يعلم بعد إن كانت تبادل آدم المشاعر لكن على الأقل مازال لديه أمل للقتال من أجلها، لذلك قال في محاولة منه للاستمرار في هذه المعركة

- في النهاية ستختار توليب الرجل الذي تحبّه حقاً. إن كانت تحبّك فلقائي بها لن يغيّر أي شيء، على العكس إنّه شيء جيد لتعلم من هو الرجل الذي تحبّه حقاً. أنا لم أتخيل في حياتي أن أقول هذا الكلام لكنّني لا أستطيع لومك على حبّك لها فوجودك قرب امرأة مثلها سيجعلك حتماً تقع في حبّها. أرجوك دعنا نتوقف عن العراك والتصرّف كالأطفال، وندعها تقرّر بنفسها ما تريد فكلانا نريد لها السعادة.

أخيراً هدأ آدم وأتّفق الصديقان على شيء واحد وهو سعادة توليب، لذلك قرّرا ترك الأمر بيدها وعندما عادت وجدت أنّهما أكثر هدوءاً وراحة، وعلى ما يبدو أنهيا الخلاف الذي حصل بينهما، وقد أسعدها هذا الأمر كثيراً فآخر شيء تريده هو رؤية الخصام بينهما وخصوصاً إن كانت هي السبب في ذلك.

قضى الأصدقاء الثلاثة ذلك اليوم معاً، ولأول مرة شعرت بسعادة غامرة واكتمال فهي مع أقرب اثنين إلى قلبها ولا تستطيع تخيل الحياة دون وجود أحدهما.

في المساء فكرّ آدم بما عليه فعله الآن، فقد اتفق مع فرات على ترك الأمر لتوليب، لكنّها لا تعلم حتى الآن بأنّه يحبّها، لذلك قرر فتح قلبه وإخبارها

بمشاعره تجاهها، فاستجمع أفكاره قدر المستطاع ثم توجه نحو غرفتها. سمعت توليب طرقاً خفيفاً على باب الغرفة فذهبت لترى من القادم وعندما فتحت الباب تفاجأت لدى رؤيته أمامها.

قال لها عندما رأى نظرة الحيرة والاستغراب على وجهها آسف لقدومي في هذا الوقت لكنني لن أستطيع النوم قبل التحدث معك.

- ألا يمكن لهذا الحديث الانتظار للغد؟
- مع الأسف لا، فأنا لا أدري إن كنت سأمتلك الجرأة والشجاعة لقول ما أريد قوله في الغد.
- حسناً ادخل لنتحدث في الداخل.

دخل آدم وهو متوتر ولا يدري كيف سيبدأ بالكلام، كان هذا أصعب شيء يواجهه منذ سنوات، فهو لم يجد صعوبة يوماً في التحدث مع أي امرأة.

أشارت إليه ليجلس لكنّه لم يفعل وإنّما توجه نحو النافذة ووقف هناك يتأمّل المدينة المتألّقة بكلّ تلك الأضواء، بينما وقفت هي خلفه منتظرة أن يبدأ بالكلام.

قال آدم من دون أن يلتفت إليها، هل تذكرين اليوم الذي ذهبنا فيه إلى برج سيدني؟.

لم تفهم السبب وراء ذكره هذه الحادثة الآن لكنّها أجابته طبعاً أذكر.

- وهل تذكرين لماذا ذهبنا إلى هناك؟.
- لأنّك أردتَ أن أواجه خوفي من الأماكن المرتفعة.

كانت توليب تخاف من الأماكن المرتفعة فقرر آدم اصطحابها إلى البرج رغماً عنها، حتى أنّه حجز تذكرتين للخروج في جولة حول البرج. خافت يومها كثيراً وأرادت الرحيل، لكنّه نظر إلى عينيها وقال لها بحزم وقوة ستواجهين خوفك هذا لأنّك قوية ولا يستطيع أيّ شيء هزيمتك، أنا هنا معك وسأمسك يدك بقوة، أرجوك ثقي بي. كلامه يومها جعلها تتحلّى بالشجاعة حتى أنّها خرجت معه في الجولة حول البرج. كانت خائفة لكنّ يده الممسكة بها أمدّتها بالشجاعة والثقة وبفضله انتصرت على خوفها.

تابع آدم كلامه إلى توليب وبصوته قليل من الارتجاف والخوف

- اليوم أنا أريد مواجهة خوفي.

فاجأها صوته المتردد وغير الواثق، فخلال الأعوام الماضية كان هو قوّتها والصخرة التي تستند عليها دون خوف، لم تتخيل أن تسمعه وهو يقول هذا الكلام أبداً، فاقتربت منه وقالت: انظر إلي.

استدار آدم ناحيتها فأمسكت بيديه وتابعت قائلة: أنا بجانبك مهما حصل، ومهما كانت المشكلة سنواجهها معاً.

رأت توليب الدموع تتجمع في بحر عيني آدم، وقد أثرّ بها هذا المشهد كثيراً، حتى أنّها من دون أن تعي وضعت يديها حول وجهه، ثم مسحت بأطراف أصابعها تلك الدموع الآيلة إلى السقوط. شعرت في تلك اللحظة بعطف كبير تجاهه، وكأنّه طفل صغير يحتاج إلى حنان أمه، فداعبت بيدها خصلات شعره الحريري المنسدلة على جبينه، ثم قالت له بكل رقة ماذا جرى هيّا أخبرني.

أمسك بيدها التي تداعب شعره ثم قرّبها من شفتيه وطبع قبلة على أطراف أصابعها فشعرت بحيرة أكبر، بعدها احتضن يديها بين يديه وقال: أنا خائف منك أنت.

- هل فعلت شيئاً أحزنك من دون أن أدري؟.
- بعد هذه الليلة سيكون قلبي قد أصبح بين يديك، وأنت الوحيدة القادرة على جرحي كما لم يفعل أحد من قبل.

شعور من الخوف سيطر عليها فسحبت يديها من بين يديه وتراجعت خطوة إلى الوراء، لكنّه تبعها وقد بدا أنّه لن يتراجع هذه الليلة عمّا يريده.

وقفا تقريباً متلاصقين حتى أنّها شعرت بأنفاسه قرب وجهها. قالت له في محاولة منها للهروب من الشيء الذي طاردها منذ سنتين أرجوك لا تقل أيّ شيء، اذهب الآن.

قال لها: سأقول ما أتيت من أجله أولاَ، عليك أن تسمعيه لمرة واحدة فقط وإن لم يعجبك انسيه وكأنّي لم أقله. اليوم ستعلمين ما أشعر به تجاهك، فأنا لا أتخيّل الحياة من دونك، ومن أجلك أتخلى عن كل شيء، حتى أنّني أضحي بنفسي كي تكوني سعيدة. أرجوك أعطني الفرصة كي أجعلك سعيدة.

ابتلعت توليب ريقها، وشعرت بأن الكلمات تتوقف في حنجرتها، أرادت الكلام لكنّ الكلمات لم تخرج. تابع كلامه لها وهو مازال قريباً منها وكأنّه يعانقها

- أريدك بجانبي في كل وقت، أريد أن أختبر معك معنى كل شيء جميل في هذه الحياة. توليب إنّ توقي إليك يدمّر حياتي أرجوك أنقذيني.

كانت مصدومة ولا تعلم ماذا يجب أن تقول. شعرت بالغثيان وقبل أن تنطق بأيّ كلمة انحنى وطبع قبلة صغيرة على شفتيها ثم تابع قائلاً

- لا أدري كيف حدث ذلك لكن ما أعرفه هو أنّ قلبي أصبح عاجزاً عن النبض دونك، فأنت ربيع روحي التائهة ومنجدها، أنت كل شيء هربت منه في هذه الحياة، أنت انتهاء حربي مع قلبي، انتهاء حربي مع مشاعري وإنسانيتي، فمنذ التقيتك تغيرت حياتي وكلّ ما فيها أصبح ينبض بالحياة والحبّ، إذا أنكرت حبّي لك أخون قلبي، لذلك سأقول لك الكلمة التي لم أقلها لأنثى من قبل أنا أعشقك.

كان قلبها يطرق بشدّة فهي تخشى عليه وتخاف من جرحه رغم أنّها تحمل له مشاعر صادقة. أخيراً ابتعد آدم وقبل أن يغادر قال لها: تصبحين على خير يا أجمل شيء عرفته في حياتي.

غادر آدم وتركها مصدومة، كان عليها الآن مواجهة مشاعرها وبكل صراحة لمعرفة الرّجل الذي تحبّه حقاً، والذي ترغب بإمضاء بقية حياتها برفقته، كانت متعلقة بفرات وآدم معاً ولا تتخيل الحياة من دونهما، فكيف ستتخلى عن أحدهما الآن؟.

(11)

حياة ليست بالحياة

الحبّ سمّ قاتل إن لم يولد في قلبين، ينتشر رويداً رويداً ويسمّم العقل والمشاعر، يحوّل القلب إلى مجنون لا يرضا بالهزيمة، مجنون يفعل كلّ شيء للحصول على مبتغاه حتى لوكانت التعاسة هي مصيره المحتوم.

غادر فرات مدينته قبل بضع سنوات، وهو يعتقد أنّه عقد هدنة مع الحياة، وأنّ هذا البعد سيشفع له وينقذه من عذابه، لكنّ ما حصل كان على عكس توقعاته فالثمن الذي عليه دفعه كبير، ولا مفر من الكارما التي تحوم حول حياته وتحوّلها إلى جحيم. اليوم ومن جديد يعود إلى تلك المدينة، جزء منه سعيد وجزء آخر لا، فطوال حياته هناك لم يعرف يوماً معنى السعادة.

عندما تقابل مع توليب شعر وكأنّها أعتقته من النار التي تأكل قلبه، وأنهت عذاب روحه. كأنّ الحياة رضيت أخيراً بالثمن الذي دفعه، وأعطته فرصة جديدة ليثبت أنّه تَغيّر وأصبح إنساناً أفضل.

كانت العائلة قد علمت بقدومه المفاجئ قبل أسبوع من الآن، وحياة كانت أكثرهم سعادة، حياة عذابه وألمه وتأنيب ضميره، حياة التي تأمل في كل مرة يزوهم فيها أن تكون هذه هي عودته الأخيرة. رؤيته لها اليوم ذكرته بمصارحتهما قبل السفر، يومها تكلّم معها بمنتهى الصراحة عمّا يدور في قلبه وعقله، وعلى الرغم من رفضها الابتعاد عنه، لم تستطع قول شيء خصوصاً أنّ هذا الخيار كان الخيار الأقل ألماً.

اعتادت حياة في الماضي على لقاء فرات كثيراً بحكم صداقة العائلتين، ومنذ أن بدأ قلبها يعرف معنى الحبّ، وجدت نفسها قد وقعت في غرامه، كانت تعلم أنّ أمّه تحبّها كثيراً وترغب بها كزوجة لابنها، لكنّها لم تكن واثقة من مشاعره تجاهها، فلا أفعاله ولا أقواله تدلّ على أنّه رجل عاشق، وعلى الرغم من هذا الشّك في داخلها، لم تستطع منع نفسها من حبّه. كانت تراه كأمير ساحر وحلم كلّ امرأة الحصول على رجل مثله، وفي اليوم الذي طلبتها فيه أمّه للزواج، شعرت بالفرح لفوزها أخيراً بقلبه.

صحيح أن حلمها تحقق في ذلك اليوم لكنّ هذا الحلم تحول بسرعة إلى كابوس مريع، فحياتها معه كانت باهتة وخالية من المشاعر، وطوال الوقت الذي قضته برفقته لم تحظى بالسعادة التي أملت بها. كان يعاملها بشكل جيد، لكنّه دائماً بعيداً عنها ومهما حاولت التقرب منه وتحطيم الجدار الذي

بينهما تفشل. في النهاية استسلمت للواقع وأقنعت نفسها بأنّ هذه هي طريقته في الحبّ، فهو ليس رجلاً شاعرياً أو رومانسياً وإنّما رجلٌ عمليٌ لا تعنيه العواطف.

بقيت الأمور بينهما على هذه الحال إلى اليوم الذي سمعت فيه اعترافه بعدم حبّه لها. في ذلك اليوم قال لها: لقد حاولت كثيراً أن أحبّك وأن أعطي هذه العلاقة فرصة لكنّني لا أستطيع النجاح. كلامه يومها جرحها وآلم قلبها، فقد أحبّته دائماً من غير قيد أو شرط، ولم تعلم من عليها أن تلوم لوصولها إلى هذا الوضع، أتلومه هو أم تلوم أمّه أم نفسها. عليها أن تعترف لقد رأت هذا في عينيه دائماً فهو لم ينظر إليها بحبّ يوماً. كان عليها الاختيار إمّا فراقه للأبد أو تقبّل سفره والابتعاد، رضيت يومها بالحلّ الأقل ألماً وادّعت موافقتها على السفر كي تسمح له أمه بذلك.

لاحظت حياة بأنّ فرات بدا مختلفاً في هذه الزيارة، فهو سعيد وعيناه تشّعان ببريق مختلف. لم تعلم هل عليها الشعور بالسّعادة أم بالقلق، فمنذ سفره وهي تخشى دخول نساء أخريات إلى حياته رغم أنّها تثق بفرات ومتأكدة أنّه لن يفعل شيئاً يؤذيها وهما مازالا زوجان.

لدى وصول فرات إلى البيت قال لحياة سأذهب إلى غرفتي كي أرتاح من عناء السفر، لكنّه في الحقيقة لم يكن متعباً وإنّما يهرب منها، وبعد دخوله الغرفة بعدّة دقائق لحقت به وبسبب شوقها الكبير له لم تستطع منع نفسها من الاقتراب منه ومعانقته، لكنّه تصرف بشكل فظٍّ معها ولم يسمح لها بذلك بل أبعدها عنه وطلب منها عدم فعل ذلك مجدداً. خرجت حياة حزينة بينما شعر هو بمزيج من الغضب وتأنيب الضمير، وفكّر في الرسالة التي كتبها لها قبل وصوله. لا يدري بعد إن كان سيمتلك الشجاعة لإعطائها هذه الرسالة أم لا، لكنّه على الأقل سيحاول.

أخرج الرسالة من حقيبته، وأعاد قراءتها مجدداً

عزيزتي حياة،

لا أدري كيف سأبدأ رسالتي هذه إليك، وأيّ الكلمات عليّ أن استخدم كي لا أجرحك أكثر مما فعلت، الشيء الوحيد الذي أريدك أن تعلميه وتتأكدي منه هو أنني بذلت ما بوسعي لإنجاح هذه العلاقة، لكنّني فشلت لأنّه لا أحد يستطيع التحكّم بالقلب.

منذ سنوات وأنا أتساءل حول أمر واحد يا حياة، لماذا لا يموت حبّك لي برغم كلّ شيء فعلته لك؟ لماذا تصرّين على البقاء معي في هذا السجن، بينما بمقدروك تحريرنا من هذا العذاب؟ لماذا لا تعطينا فرصة أخرى للسعادة؟.

في كل مرة آتي بها أتمنى أن تكوني قد استسلمت أخيراً، وقررت تحريري من سلاسل سجني وعذاب ضميري، لكنّني أجدك مازلت صامدة. لا أدري من أين يأتيك هذا الصبر، وقد أخبرتك وبكل صراحة أنني لا أحبّك.

يوم حدثتك عن رغبتي في السفر، كان لديّ أمل ضئيل بقبولك تحريري، لكنّك لم تفعلي وإنّما جعلت سلاسل سجني أطول، كان السفر حلاً مقبولاً في الماضي، فالإنسان يبحث عن قشّة يتمسك بها كي لا يغرق، لكن الآن تغير كل شيء. فجأة أشرقت الشمس وأنارت حياتي الكئيبة، وفي الوقت الذي فقدت فيه الأمل من الحبّ والحياة، التقيت بمهجة الروح.

أنا أعلم بأنك ستنعتيني بأقبح الأوصاف عندما تقرأين هذه الرسالة، وأنا أنعت بها نفسي منذ الآن، ستقولين عني أنانّي ولا يفكر إلاّ بنفسه، قاسي القلب وانتهازي، لكنّني لن أغضب منك، قولي عني ما تشائين فأنا لا أهتم، ببساطة لأنني ولأول مرة في حياتي عرفت معنى العشق، وأتمنى من كل قلبي أن تعيشي هذا الشعور يوماً ما.

الشيء الوحيد الذي أطلبه منك يا حياة هو أن تسامحيني، وأن تقبلي بتحريرنا من هذا الزواج. صدقيني بأنّني أتمنى من كل قلبي أن تجدي السعادة مع شخص يحبّك وتحبّينه، وتعيشي هذا الشعور الرائع الذي عشته، فهو شيء سيغيّر حياتك إلى الأبد كما غير حياتي.

فرات

قرر فرات بعد بضعة أيّام من وصوله فتح الموضوع مع حياة، لكنّه لم يتوقع أنّ تكون المحادثة بهذه الصعوبة، أخذ يسألها عمّا فعلته في غيابه، ثم رويداً رويداً وصل إلى النقطة الفاصلة.

شعرت حياة بأنّ قلبها سقط بين قدميها عندما سألها فرات هذا السؤال.

- حياة إلى متى سيستمر هذا الوضع بيننا؟.
- السفر كان قرارك أنت.
- أنا لا أتحدث عن السفر، أنت تعلمين تماماً ماذا قصدت بكلامي، كما ترين لا يوجد بيننا أيّ شيء منذ زمن طويل، وأنا عاجز عن إعطائك حياة طبيعية كباقي الأزواج، من حقّك أن تبحثي عن رجل يحبّك فأنت امرأة رائعة، أنا أعلم بأنّني أحزنك دائماً وهذا يعذبني.

حياة لا تستطيع الابتعاد عن فرات، وقد انتظرته طوال هذا الوقت على أمل الحصول على حبّه، لذلك لا تستطيع الموافقة على طلبه.

- فرات أنت هي سعادتي وأنا لا أريد أن أكون مع أي رجل آخر.
- تكذبين على نفسك يا حياة فأنت لست سعيدة معي، أرجوك حرّري كلينا من هذا العذاب.

- موافقتي على السفر كانت مقابل موافقتك على هذا الوضع، فما الذي تغيّر الآن وجعلك تطلب الانفصال مجدداً؟.

ماذا سيقول لها الآن؟ هل سيقول هناك امرأة أخرى في حياتي ولذلك أريد الانفصال؟ لا يستطيع فهو لا يريد جرحها، كما أنّه يخشى أن تعاند إن علمت بوجود امرأة أخرى في حياته.

لم يعلم فرات بأنّ حدس المرأة العاشقة لا يخطئ، وأنّ كل شيء فيه يدلّ على وجود امرأة أخرى، في البداية سعادته الظاهرة وغير الاعتيادية، والآن طلبه الانفصال، لم يعلم أنّ الحبّ هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الإنسان إخفاءه، وأنّه حتى لو لم يقل شيئاً فإن قلبه وروحه تتحدث. شعرت حياة بذلك وهذا جعل قلبها العاشق ينزف ألماً، فطوال سنوات عاشت مع هذا الهاجس والخوف من أن تأتي امرأة أخرى وتأخذه منها، وقد حصل أخيراً ما خشيته، الآن ماذا ستفعل؟ هل ستتركه لامرأة أخرى أم ستحمي حبّها؟.

قال فرات بعد صمت طويل وتفكير عميق بالإجابة

- إذا كنت سعيدة برفقتي فأنا لست كذلك، أنت تعلمين بأنّه لا يوجد أمل لهذه العلاقة، وإلاّ كنّا أصلحنا هذا الوضع منذ سنين.

- أنا لن أتخلى عنك مهما حدث.

وصل فرات إلى طريق مسدود في حديثه معها فغادر غاضباً، ولم يعلم أنّه بحديثه هذا قد زاد من شكوكها وأنّها ستبدأ بمراقبته بشكل أكبر، وخلال الأيام التالية بدأت بالفعل تراقبه عن كثب، والشيء الذي لفت انتباهها كان اهتمامه المفاجئ كلّما تلقى اتصالاً هاتفياً. انتظرت لانتهاز الفرصة المناسبة للتحرّي، وعندما كانت العائلة مجتمعة رنّ هاتفه لكنّه لم يرد في البداية، وبعد بضع دقائق اعتذر من الجميع للاهتمام بموضوع خاص بالعمل. إحساسها الأنثوي أخبرها بأنّ هناك سرّاً ما وراء هذه المكالمة فتبعته من دون أن يلاحظ ذلك.

أغلق على نفسه في غرفة المكتب، وعندما حاولت التنصّت لم تستطع سماع شيء، فقرّرت تجربة حظّها وفتح الباب ببطء، لكنها ندمت لاحقاً على قرارها هذا فسماعها لكلامه هدم عالمها في لحظات، وكأنّ الأرض قد انشقّت تحتها وسقطت في هوّة من الجحيم. كانت هذه المرة الأولى التي تسمعه فيها وهو يقول كلاماً حَلمتَ بسماعه لأعوام، إنّه حقاً يحبّ تلك المرأة فقد شعرت لدى سماعه وكأنّ الكلمات تخرج من قلبه. هل هذا الرجل الرومانسي الساحر والمليء بالشغف هو زوجها فرات؟

لم تعد قادرة على سماع المزيد، فغادرت إلى غرفتها باكية، وأخذت تفكر كيف هي تلك المرأة؟ هل هي أجمل منها؟ هل استغلت وحدته وأغوته؟ كانت معركتها صعبة لكنّها لن تستسلم وستتكلم مع أمّه، فهي الوحيدة القادرة على مساعدتها، وهي لن تسمح له بالطلاق أبداً عندما تعلم ذلك.

شعر بأنّه خسر المعركة الأولى بعد حديثه الأول مع حياة، وعلى الرغم من أنّ الأمور أصبحت أكثر صعوبة وتعقيداً إلاّ أنّه لم يفقد الأمل. كان يعلم أنّ حصوله على موافقة أمّه الآن هو أمر أقرب للمستحيل، لكنّه قرر تجربة حظّه معها علّها ترأف بحاله أخيراً.

أخبر فرات والدته برغبته في الطلاق، فبقيت صامتة تستمع لكل ما حدث بينه وبين حياة، وعندما انتهى رمقته بنظرات ثاقبة وسألته: هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟.

صدمه سؤالها ولم يعلم بماذا يجيب، إنّه لا يستطيع الكذب على أمه.

أعادت عليه السؤال مرة ثانية وهي مازالت مرّكزة نظرها عليه لترى الحقيقة فقال لها: نعم هناك امرأة أخرى، أخرجتني من حزني وسجني، لكنّها ليست السبب في طلاقي، أنا لم أحبّ حياة أبداً.

- كيف تستطيع قول ذلك. إنّك لن تجد زوجة أفضل منها، وما تشعر به الآن هو مجرد نزوة عابرة ستزول لاحقاً، إنّه شيء يحدث بين الأزواج، ولن أدعك تخسر حياة من أجل هذا.
- إنّها الحبّ الوحيد في حياتي، وأنا أتخلى عن كل شيء من أجلها.
- أتعتقد أنّك الرجل الوحيد الذي مرّ بهذا؟ إنّه يحدث مع الجميع، عليك أن تستجمع نفسك قبل أن تخسر كل شيء، فإن خسرت حياة لا عودة عن هذا الأمر.
- أنت لم تسأليني يوماً إن كنت سعيداً معها أم لا، أنت تعلمين بأنّني تزوجت منها لأنك أردت ذلك وليس لأنّني أحبّها.
- أنت تشبه والدك حقاً، إيّاك أن تضع اللوم على أي شخص آخر، نعم أنا اخترت حياة لك لكنّك وافقت على ذلك والآن عليك تحمل العواقب. كان عليك الرفض وقتها أمّا الآن فقد فات الأوان وأصبحت زوجتك، حياة هي ابنتي أيضاً ولن أقبل بشيء لا تريده هي، إن طلقتها ستنسى أن لك أماً تعيش في هذا البيت.

نهضت أمّه غاضبة وتركته غارقاً بألمه، وطوال الأسبوع التالي رفضت التحدث معه لتضغط عليه أكثر، كانت تعلم بأنّه لن يستطيع تحمل هذا

الأمر وسيرضخ في النهاية، لكنّه في هذه المرة بقي مقاوماً، وعندما فقد الأمل قرّب موعد سفره للتخلص من هذا العذاب.

كان فرات في هذه الزيارة مختلفاً عن الابن الذي اعتادت عليه، والذي لا يجعلها تكرّر كلامها مرتين، وقد ربطت هذا التغيير بالمرأة التي دخلت حياته فازداد غضبها منها وكرهها لها، وعندما حان موعد السفر، ذهب فرات لوداعها فقالت له: اذهب واقطع علاقتك بتلك المرأة كي تكون ابني حقاً، فأنا ربّيتك رجلاً يتحمل مسؤولية أفعاله، لا تجعلني أشعر بأنّ تربيتي قد ضاعت.

كان أهون عليه لو أنّها غرست سكيناً في قلبه ولم تقل له ذلك الكلام. لم يفهم كيف أنّها لم تشعر بالألم الذي في قلبه، هل يعقل أنّها لم تحبّ في حياتها ولذلك هي عاجزة عن فهم ما يشعر به الآن؟ عندما كان طفلاً صغيراً كان يراها تتألم من ضرب والده لها، وقد شعر وقتها بألمها وحماها، لكنّ لماذا لا تشعر بألمه اليوم؟ لماذا لا تفهمه؟. طوال سنوات لم يفعل أيّ شيء سوى الإنصات إليها، إنّها المرة الأولى التي يطلب فيها شيئاً لنفسه، هل يعقل أن هناك أم تقف في وجه سعادة ولدها لأنّها ترى سعادته في شيء آخر؟

ترك فرات الرسالة التي كتبها لحياة في غرفة النوم لتقرأها بعد ذهابه وغادر، وفي الطريق بكى بحرقة وهو يرى الخيار المفروض أمامه، الآن هو أمام نارين وليس خيارين، إمّا أمه ورضاها أو عشقه فماذا سيختار؟ هل سيضحي بتوليب بعد أن اهتدى إليها أخيراً من أجل رضا أمه؟.

(12)

الأمنية الثانية

في ليلة رأس السنة وتماماً عند منتصف الليل، هناك حيث ينتهي عمر ويبدأ آخر، أَدركتْ أنه لا توجد حقيقة ثابتة في حياتها إلاّ هو، وأنّها حتى النفس الأخير لها ستبقى تحبّه، وتنتظره بجنون الشوق وشقاء الفراق ولوعة الترقب.

بدأت كل ذكرياتها مع آدم تمرّ في رأسها كشريط مصور. تذكّرت أوّل مرّة قابلته فيها وكيف أنّها لم تحبّه في البداية، فقد بدا مغروراً ومختلفاً كثيراً عن فرات، هو أيضاً لم يحبّها وبالكاد خاطبها، وعندما سألت فرات عن سبب معاملته لها بتلك الطريقة، أخبرها بقصّته كاملة وطلب منها عدم القسوة عليه، فما جرى معه في الماضي ترك أثراً كبيراً على حياته. كان واضحاً من كلام فرات أنّ آدم لا يرغب في أيّ علاقة طويلة الأمد، رغم أنّه قارب الثلاثين عاماً من العمر فعلاقته بأبويه تركت شرخاً كبيراً في داخله وأفقدته إيمانه بالحبّ.

كلام فرات جعلها تفهم آدم وتحزن من أجله، حتى أنّها سامحته على تصرفه الفظّ تجاهها. تمنّت يومها لو أنّها تستطيع مساعدته، لكن وسط عناده وكرهه للنساء كان من المستحيل أن يصبحا صديقين.

بقيت العلاقة بينهما فاترة ومقتصرة على تبادل التحيّة والكلام البسيط إلى الوقت الذي غادر فيه فرات. كان هو آخر شخص توقعت اتصاله، ولم تفهم لماذا اهتمّ بها فجأة، لكن عندما أخبرها بأنّه يعلم ما جرى بينها وبين فرات تذكّرت ما حدث له في الماضي فعرفت لماذا تعاطف معها وأراد رؤيتها. ذهبت إلى لقائه لإرضاء فضولها فقط، ولم تعلم أن دخوله في حياتها سيغيّرها للأفضل، فرحيل فرات جعل كلاهما يرى الآخر على حقيقته، وما قالت عنه مستحيلاً تحوّل إلى حقيقة وأصبح آدم صديقها المقرّب.

في ذلك الوقت لم يعلم آدم أنّ الحياة وضعت خطّتها لتعلّمه الحبّ، فآخر شيء توقعه هو أن يقع في حبّ امرأة وخصوصاً إذا كانت تلك المرأة هي حبيبة صديقه السابقة. قربه من توليب جعله يكتشف مدى طيبتها ونقاء روحها فقد كانت شفافة كنهر رقراق وقد رأى روحه من خلالها. كان خائفاً في البداية من هذا التغيير، فطوال سنوات لم يسمح لأنثى بالمساس بقلبه،

كان قربه من أي امرأة يعيد له ذكرى والده المحطم، ولم يرد أن يتحول إلى نسخة أخرى عنه بسبب امرأة تهجره من أجل رجل آخر.

كان تعاطفه معها هو الشيء الذي فتح ذلك الطريق إلى قلبه، لم يعلم وقتها أن ما طلبه فرات سيكون بهذه الصعوبة، ربما لاعتقاده بأنّها ستنساه في وقت قصير وبهذا لن يكون هناك داع لتواجده في حياتها، لكن يحلو للقدر أن يغير مساراتنا بشكل لم نتوقعه أبداً.

كان لقاؤه الأول بها بعد رحيل فرات مربكاً وكأنّه لا يعرفها، ورغم أسلوبه الساحر وجد صعوبة في التواصل معها، والرجل الواثق بنفسه بدا مرتبكاً وغير قادر على الكلام، أمّا هي فقد بدت حزينة وشاحبة كوردة ذابلة، ولم يعلم ماذا عليه أن يقول كي يجعلها تشعر بتحسّن، فهو لا يعرف كيفية التعامل مع هذا النوع من المشاعر، فقد كان دائماً يضع مسافة بينه وبين الآخرين حتى لا يتواجه مع مشاعره. بدت كعصفور مكسور الجناحين ويبحث عمّن يداويه ويعطيه الحنان، وفي تلك اللحظة أدرك لماذا طلب منه فرات البقاء بجانبها. فشعر بحنان وعطف كبيرين تجاهها.

جلسا صامتين ولا أحد يعلم ماذا يجب أن يقول، وعندما أرادت الذهاب أوقفها آدم وقال لها بارتباك: الشيء الوحيد الذي أريدك أن تتأكدي منه هو

أنّ هذا الحزن سينتهي، ومهما بدا لك مؤلماً الآن ستتفاجئين من قدرتك على التحمل مع مرور الوقت. يوماً ما ستنهضين وستكونين أقوى لكنّك لن تنجرحي بسهولة مرة أخرى. أنا سأكون بجانبك حتى ذلك الوقت ولن أتحدث عن فرات دون رغبتك، أمّا إذا أردت الحديث فكلّي آذان صاغية.

قالت توليب: أشعر اليوم وكأنّني أرى رجلاً آخر أمامي. لم يحدث أن تكلمنا يوماً بهذا القرب، للحقيقة لقد تفاجأت من اتصالك فقد اعتقدتك شخصاً أنانياً لا يهتم بمشاعر الآخرين، ولم يخطر في بالي أنك ستفكر بي في هذا الوقت. أعتذر منك حقاً فأنا أشعر بالخجل من نفسي لتفكيري السيء بك.

لدى سماعه لكلام توليب شعر بالخجل من نفسه، فقدومه إليها كان فكرة فرات وليست فكرته، وللصراحة لو لم يطلب منه فرات ذلك لما فكر بالقدوم أبداً، وعندما وافق على عرض فرات اعتقد أنّه هو من سيداوي جراح توليب، ولم يعلم أنّ الحياة ستجعلها تداوي جراحه أيضاً.

في صباح اليوم التالي غادرت توليب الفندق في وقت مبكر من دون أن تقول أي شيء لآدم، كانت تريد البقاء وحدها للوصول إلى القرار الصائب. أخذت تمشي في شوارع اسطنبول من دون وجهة محدّدة والأفكار تتصارع

في عقلها، توقفت أمام متجر لبيع الحيوانات الأليفة، فرأت قط صغير يشبه قطّها (grey) كثيراً، وهو القط الذي أهداها إيّاه آدم.

ذكرى ذلك اليوم وضعت ابتسامة على وجهها، فقد أتى آدم للقائها كالعادة وعندما جلسا لاحظت وجود خدوش على يديه، وعندما سألته عن السبب، أجابها بأنّه رأى إعلان للبحث عن شخص يتبنى قط صغير فمالكه سيغادر البلاد، أحبّ آدم القط كثيراً فكّلم صاحب الإعلان وأحضره إلى منزله، لكنّه لم يتوقع مقدار الصعوبة التي سيواجهها مع هذا القط، فمنذ مجيئه لم يدعه يقترب منه أبداً، وعندما حاول ذلك في الليلة الماضية انتهى به الأمر بالحصول على هذه الخدوش.

ضحكت توليب عليه وقالت له: هل يخيفك هذا القط الصغير؟ إنّه بحاجة لبعض الوقت فقط ليعتاد على البيت الجديد.

خلال الأيام التالية حاول آدم مراراً وتكراراً التقرب منه لكنّه لم ينجح، وعندما فقد الأمل وقرر التخلي عنه، طلبت منه توليب أن يدعها تحاول ولدى وصولهما إلى البيت تقدّم القط الصغير منهما ببطء، لم يكن خائفاً من توليب لكنّه حذر، وفي اللحظة التي رأته فيها وقعت في حبّه على الفور، كان قطّاً رمادي اللون وعيونه زرقاء. أرادت الاقتراب منه ومداعبته لكنّ آدم

أوقفها قائلاً: لا تنخدعي بهذه العيون البريئة إنّه وحش صغير، وأخاف أن يهاجمك إن اقتربت منه أكثر.

قالت له: لا تقلق طالما أنّه لم يهرب لدى دخولنا فهو يثق بي، دعني أحاول معه للمرة الأخيرة، فأنا لا أريدك أن تتخلى عنه. هل يمكنك أن تعطيني القليل من طعامه؟.

اقتربت منه رويداً رويداً بينما بقي هو ساكناً لا يتحرك، وعندما أصبحت على مقربة منه هرب بعيداً لكنّه وقف على مسافة قريبة منها يراقبها، وضعت القليل من الطعام أمامه وابتعدت قليلاً إلى الوراء، مضى بعض الوقت قبل أن يقرر القط الصغير الاقتراب مجدداً وعندما فعل أخذ يشمّ الطعام ثم رويداً رويداً اقترب منها وبدأ يشمّها هي أيضاً، بدأ بتناول طعامه وعندما حاولت مداعبته تراجع إلى الوراء ولم يدعها تفعل. لم تضغط عليه أكثر في ذلك اليوم فهذه هي المرة الأولى التي يراها فيها، على الأقل لم يهاجمها كما فعل مع آدم. لذلك تركته ليتناول طعامه وجلست مع آدم في حديقة المنزل لتبادل أطراف الحديث معه، فجأة شعرت بشيء ما يلامس قدميها فصرخت من الفزع وقفزت من مكانها. صرختها تلك أفزعت القط الصغير فهرب إلى الداخل. كان غراي قد تسلّل ببطء بينما هما مشغولان

بالحديث، وجلس تحت قدميها. كان واضحاً أنّ القط الصغير أحبّ توليب وبدأ يثق بها، لذلك تراجع آدم عن التخلي عنه، وقرر منحه فرصة ثانية.

قال لها آدم بغيظ كيف تنجحين في جعل الجميع يحبّك، حتى هذا القط استسلم لك من دون أدنى مقاومة.

ضحكت وقالت ربما مالكته السابقة هي أنثى وهو معتاد على النساء، لذلك واجه صعوبة في التأقلم معك وشعر بالراحة معي.

بقيت توليب تزوره باستمرار لتساعده على التأقلم، ومع الوقت بدأ يتقرب منها أكثر وأكثر، كان غراي دائم الجلوس في الأمكنة التي جلست فيها وكأنّه يلاحق رائحتها، حتى أنّه في آخر مرة سمح لها بمداعبته. كان قطاً غريباً لا يحبّ المداعبة ويأتي إليك عندما يشاء هو لا متى أردت أنت، وبما أنّ توليب أحبّته كثيراً اقترح عليها آدم أخذه إلى بيتها. تحدثت مع عمتها لتسمح لها بإحضاره، وعندما وافقت انتقل رسمياً للعيش معها وأصبح قطّها. كان يلاحقها أينما ذهبت وكأنّها أمه، وينام معها على السرير في الليل، وكلّما اضطرت للسفر من أجل العمل يشتاق لها كثيراً. غراي هو أجمل هدية حصلت عليها في حياتها، وقد أعطاها شعوراً فريداً من الحبّ لم تختبره من قبل.

تابعت توليب سيرها نحو البحر، وفي الطريق إلى هناك مرّت أمام إحدى صالات السينما فرأت إعلاناً لفيلم من أفلام ديزني بعنوان علاء الدين والمصباح السحري، كان هذا الفيلم مشهوراً والجميع يعرف قصّته، لكنّه يعني لتوليب شيئاً مختلفاً فهو مرتبط بذكرى خاصة جمعتها بفرات. حدث ذلك عندما خرجت معه للاحتفال بليلة رأس السنة، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما بدأ الحشد حولهما بالعد التنازلي إيذاناً بحلول العام الجديد. كانت سعيدة جداً وكل ما يهمها هو فقط، وعندما بدأ العام الجديد قال لها وهو يداعب أطراف شعرها الطويل والمموج.

- اليوم أنت تملكين المصباح السحري لعلاء الدين ولديك ثلاث أمنيات.
- هل أنت متأكد من أنك ستحققها لي مهما كانت؟.
- نعم سأفعل، هيّا أخبريني ما هي أمنيتك الأولى.
- ألاّ يتوقف قلبك عن حبّي يوماً.
- كيف أتوقف عن حبّك وأنت امرأة تسكن جسدي من قبل أن توجد الحياة، امرأة تسحرني وتحتل تفكيري، أنت شغفي وأمنيتي في الجنّة والنار، أنت كنزي ومبتغاي وأن أنساكِ يعني أن قلبي توقف عن الخفقان.

- كلامك ساحر ويجعلني أغرق بسرور في بحر الحبّ من دون خوف أو تردد.
- ما هي أمنيتك الثانية؟
- سيكون في طلبي هذا تحدي لك.
- إحساسي يخبرني بأنّك ستختبريني، ولذلك تجعلين طلباتك صعبة التحقيق.
- أريد أن أعود قرنين إلى الوراء، إلى زمن الأحصنة والفرسان والفساتين ذات النكهة الأنثوية، وأن أكون بطلة إحدى تلك القصص الخيالية التي قرأنا عنها في الروايات.
- يا إلهي تجعلين أمنياتك صعبة التحقيق عن قصد أليس كذلك؟.
- أنت طلبت مني أن أتمنّى ما أشاء، لكنّني أتفهم إذا لم تستطع تلبية رغباتي فلسنا في عصر علاء الدين.
- حسناً وما هو طلبك الأخير؟.
- أن نذهب معاً لنزور المدينة التي يقطن فيها أعظم العاشقين.

بعد مرور كلّ تلك السنوات كان من الصعب عليها أن تعلم ماذا حلّ في أمنيتها الأولى، لكنّ أمنتيها الثانية حقّقها لها عندما كانا يقطنان في سيدني.

ذلك اليوم ذهبت لزيارته وعندما وصلت قال لها بحماس كبير، لا تنزعي حذاءك علينا الخروج فوراً. سألته إلى أين؟ أجاب إلى الريف. استغرقت رحلتهم حوالي الثلاث ساعات، وطوال ذلك الوقت كانت تستجوبه حول المكان المنشود لكن دون جدوى.عندما وصلا أحست توليب بفرح كبير وهي ترى الطبيعة الخلّابة حولها، وهدوء الريف وجمال الأحصنة، وبينما كانت مشغولة بتأمل المحيط حولها، رأت رجلاً مسنّاً يتقدم نحوهما بابتسامة عريضة وودّ كبير. كان هذا الرجل هو صاحب المزرعة وقد دعاهما للدخول إلى بيته وشرب فنجان من القهوة قبل أن تبدأ جولتهما. ابتسما للرجل وقبلا دعوته بكل سرور، وعندما دخلا أحضر الرجل أكواب القهوة وجلس يتبادل أطراف الحديث معهما. بدأت تسأل الرجل المسنّ العديد من الأسئلة الفضولية حول حياته مع الأحصنة، أمّا هو فقد اكتفى بمراقبتهما وهما يتحدثان. كانت في نظره طفل صغير متحمس لا يستطيع أي شيء إيقاف فضوله. لاحقاً أخذهما المالك في جولة حول المزرعة، ثم أحضر لهما حصانين مروضين لامتطائهما. كانت هذه التجربة لا توصف فبالرغم من خوفها في البداية إلاّ أنّها كانت متشوقة لذلك. البهجة التي أحسّت بها في ذلك اليوم كانت لا توصف وعندما ظنّت أن المفاجأة انتهت فوجئت بما حدث لاحقاً.

رأت فجأة سيارة أخرى قادمة للمزرعة وفي داخلها آدم وشخص آخر لا تعرفه، أمسك فرات بيدها وقادها نحو السيارة المتوقفة عند باب البيت، وبعدها سلّم على صديقه والرجل الآخر وسأله إن كان كلّ شي جاهزاً. أومأ آدم برأسه ثم ساعده على إنزال صندوق كبير من السيارة.

سألت توليب بفضول ماذا يوجد في هذا الصندوق؟.

أجاب فرات: هيا تعالي لندخل وسأشرح لك كل شيء.

دخلا إلى البيت وهناك فتح الصندوق، وأخرج منه فستاناً من حقبة القرن الثامن عشر وأيضاً زيّاً مشابهاً لزين الفرسان، ثم قال لها: ألم تتمني أن تعودي قرنين إلى الوراء، إلى زمن الأحصنة والفرسان والفساتين الجميلة، وأن تكوني بطلة إحدى تلك القصص الخيالية في الروايات. مع الأسف لا أستطيع جعلك تسافرين عبر الزمن لكنني أستطيع إحضاره لك. لقد فكرت بأخذك إلى مكان التصوير المتخصص بهذه الأشياء لكنّني عدلت عن الفكرة لاحقاً، وطلبت من آدم المساعدة فصديقه يعمل مصوراً في ذلك المكان، ثم ذهبنا أنا وآدم وأحضرنا هذا الزّي من أحد المتاجر التي تبيع الثياب التنكرية.

لم تصدق توليب أنّه أعدّ كلّ هذا من أجلها. كانت سعيدة جداً ولم تستطع الانتظار أكثر لارتداء الثوب.

تابع فرات: أتمنى أن يناسبك الثوب. لقد ساعدتني سيدة في المتجر على اختيار القياس المناسب.

ضحكت وهي تأخذ الثوب ثم قالت له: سنرى الآن.

دخلت إلى إحدى الغرف وغيرت ثيابها، ثم نظرت مطولاً إلى نفسها في المرآة. كان الفستان واسعاً قليلاً عليها فهي ذات بنية صغيرة لكنّ ذلك لم يعكّر مزاجها، فقد أحسّت بشعور رائع وهي ترى نفسها بهذا الثوب، كانت تبدو مختلفة كشخص قادم من إحدى تلك الأفلام التي اعتادت على مشاهدتها، وقبل أن تنجح في تقبّل نفسها في هذا الزيّ الفريد فوجئت برؤيته بزيّ الفرسان. بدا كفارس من فرسان القرون الوسطى وقد ناسبه ذلك الزيّ بشكل لا يوصف.

ضحك عندما رآها تتأمّله بتلك النظرة، وكأنّها تراه للمرة الأولى وقال لها: لماذا تنظرين إليّ وكأنّك تريني للمرة الأولى؟.

- أعتقد أنّني كذلك. يجب أن أعترف لقد لاقت بك هذه الثياب كثيراً، وأعتقد لو أنّنا عشنا في ذلك القرن كنت أحببتك تماماً كما أحبّك اليوم.

- مكتوب علينا الحبّ في أي مكان أو عصر وُجِدْنا فيه، ألم تقولي دائماً إنّه القدر. الحبّ هو قدرنا.

أمسك بيدها وساعدها على الخروج فقد كان السّير بهذا الفستان صعباً، وفي الخارج رأت آدم يحاول كتمان ضحكته وهو يراه بهذه الثياب، ثم قال له ليغيظه: لا أصدق أنّه أتى يوم ورأيتك بهذه الثياب، علينا أن نشكر توليب على هذه اللحظة الفريدة.

ضحكت هي الأخرى وهي ترى مدى غضب فرات منه وعدم قدرته على فعل شيء وهي بجانبه. في ذلك اليوم شعرت بالامتنان الكبير له، فهو وضع نفسه في هذا الموقف أمام أصدقائه من أجلها فقط، ولو أنّه رجل آخر لشعر بالسخف من هذه الفكرة، ولم يجرؤ على فعل ذلك.

ضغطت على يديه بلطف وقالت وهي تنظر إليه بامتنان وحبّ معك عرفت ما معنى أن يحبّ رجل امرأة ما.

قام الرجل الذي أتى برفقة آدم بالتقاط الصور التذكارية لهما وأعطاهما لاحقاً نسخة عنها، وحتى هذا اليوم مازالت تحتفظ بتلك الصور، وكلّما نظرت إليها تشعر بأنّها ترى حبيبين عاشا في القرن الثامن عشر. ذلك

اليوم شعرت فعلاً وكأنّها سافرت عبر الزمن، وعاشت كل ماحلمت به بفضل فرات.

(13)

ألم وفراق

"الحبّ والرّوح عنصرواحد، وهوكالروح شعلة مقدّسة، هوكالرّوح لا يفسد، ولا يتجزأ، ولا يتلاشى"

فكتور هوغو

استيقظت توليب سعيدة في ذلك اليوم، فبعد ساعات سترى فرات الذي عاد أخيراً من رحلته الطويلة. استعدت بسرعة وخرجت إلى المطار لاستقباله، كانت متحمّسة وغير مصدقة أنّ انتظارها قد انتهى أخيراً، فمنذ سفره تحولت إلى طفل صغير يعدّ الأيّام على مفكرته انتظاراً لحدث سعيد.

عندما وصلت كان الوقت مازال مبكراً لذلك أخذت تتجوّل في الأرجاء، كانت غير قادرة على الوقوف في مكان واحد من كثرة حماسها، وعندما رأت أخيراً إعلان وصول الطائرة هرعت إلى قاعة الاستقبال.

لمحته قادماً من بعيد فركضت إليه وعانقته، هو أيضاً ضمّها بقوة لصدره حتى شعرت بأنّ أضلاعها ستنكسر.

قالت له: أعلم أنّك اشتقت لي كثيراً، ولكن إن استمريت بالضغط عليّ هكذا ستكسر أضلاعي.

أجاب: أنا آسف جداً لم ألاحظ ذلك. هيّا بنا نغادر.

كان ذلك العناق بالنسبة لفرات هو تعبير عن مدى اشتياقه وخوفه من فقدانها. ذهبا سويّاً إلى بيته وهناك جلست بجانبه على الأريكة تتأمله.

ضغط بلطف على يديها الصغيرتين المستقرتين بحبّ بين يديه وقال لها: لماذا تنظرين إليّ هكذا؟.

لامست وجهه بيديها وأجابت: أريد أن أرتوي من النظر إلى عينيك فقد اشتقت إليك كثيراً.

- ولكن ألن تتكلمي أيضاً؟.
- لماذا تبدو حزيناً؟

كانت توليب قادرة على أن تقرأه بسهولة، ومن الصعب عليه أن يخفي عنها مشاعره وأفكاره لكنّه لا يستطيع أن يخبرها الآن بما حدث كي لا يجازف بخسارتها.

- أنا فقط متعب من الرحلة.

نهضت توليب كي تغادر وهي تقول: دعني أذهب إذاً كي تنال قسطاً من الراحة.

جذبها نحوه وهو يقول: إلى أين؟ هل يعقل أن أرغب بالراحة وأنت بجانبي؟

- أعشقك أكثر مما تتصور، وكأنك الرجل الوحيد على هذه الأرض.
- وأنا قلبي مسكون بك. ابقي قريبة مني وأنا لا أريد شيئاً آخر من هذه الحياة.

غادرت توليب أخيراً لكنّها بقيت تشعر بالقلق، فقد أحسّت بأنّ فرات يخفي عنها أمراً ما، وهذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها شيئاً كهذا. لم تعلم وقتها بأنّ ما يخفيه سيدمر الهناء والنعيم الذي تعيش فيه منذ شهور.

في الفترة التالية لرجوعه عادت الأمور تدريجياً إلى طبيعتها، وأحسّت توليب بأنّ ما حدث كان سحابة صيف ومضت، لكن أمر ما حدث مجدداً وأعاده إلى حالته السابقة، فقد بدأ يشرد بشكل متواصل ومسحة الحزن التي رأتها

على وجهه يوم عاد إلى سيدني أصبحت أعمق. أخيراً وبعد مجادلات كثيرة بين رغبتها في التدخل أو إعطائه الوقت لحلّ أموره بنفسه، قرّرت استجماع شجاعتها والذهاب إلى منزله من دون إخباره.

فتح فرات الباب لها فصعقت لرؤيته بهذا الشكل. كان متعباً وكأنّه لم ينم لأيّام، ولحيته طويلة على غير العادة، رؤيته بهذا الشكل زادت من قلقها عليه فقالت له بخوف: ماذا بك؟.

- ماذا تفعلين هنا؟ لماذا لم تخبريني أنك قادمة؟.
- لقد قلقت عليك فلم تكلّمني منذ أيّام.
- الوقت ليس مناسباً للتكلم الآن.
- هل حدث شيء سيء؟.
- لا أريد التحدث عن هذا الموضوع الآن.

كانت تضغط عليه للتكلم، وهو يحاول الهرب من هذا الأمر، لكنّه يعلم بأنّها لن تدعه وشأنه قبل أن يخبرها كل شيء، أخيراً قال لها لا أستطيع خسارتك يا توليب.

سقط قلبها بين قدميها عند سماعها لذلك، وقالت بشيء من العصبية أنا لا أحبّ الألغاز لذلك لديك حلّين إما أن تخبرني بما يجري معك الآن أو أخرج من هنا ولا نتكلّم بعدها أبداً.

لم يعد هناك من مفر وعليه الآن إخبارها كلّ شيء لذلك طلب منها الجلوس وبدأ بإخبارها القصّة من البداية. كانت تستمع إليه وهي غير مصدقة لم تسمعه أذناها، لم يخطر لها أبداً أنّ ما يخفيه فرات بهذا السوء. هل هذا هو الرجل الذي أحبّته؟ كيف استطاع الكذب عليها؟ كيف سمح لنفسه بأن يضعها في هذا الموقف؟. كان يتكلم وهو لا يتجرأ على النظر إلى عينيها فهو يعلم بماذا تفكر، وعندما وصل الموضوع إلى أمه ورفضها لعلاقتهما، أحسّت بالدنيا تدور حولها ولم تعد قادرة على سماع المزيد، فطلبت منه التوقف وذهبت لشرب الماء.

قضت بضع دقائق وهي تحاول الهدوء وتمالك نفسها فعلى ما يبدو هناك الكثير من الأشياء التي يخفيها وعليها معرفتها. قلق فرات عليها عندما رآها بهذا الوضع وأراد التوقف عن الكلام، لكنّها أصرّت عليه ليتابع، فأخبرها أنّ أمّه نقلت إلى المستشفى في الأسبوع الماضي وهو السبب في وصولها إلى هذه الحالة، وعندما أراد محادثتها رفضت حتى يعطيها وعداً بتخليه عن توليب وعودته إليهم.

انهارت توليب لدى سماعها لهذا الكلام، هي حتماً ترى كابوساً الآن وستصحو منه بعد قليل. اقترب فرات وحاول إحاطتها بذراعيه، لكنها دفعته بعنف، ونهضت وهي تقول إياك أن تلمسني.... أنت مخادع ..... كاذب.. أكرهك.... أنا لا أريد رؤيتك بعد اليوم. سماعه لتلك الكلمات جعلته يشعر وكأنّ الدنيا توقفت عن الدوران، كأنّ الجبال سقطت فوق قلبه، كأنّ الحياة امتلأت سواداً كليلة حالكة، كأنّ قلبه تحطّم إلى قطع صغيرة كآنية زجاج محطّمة.

جلست على الأرض وأخذت تبكي بحرقة ولدى رؤيتها بهذه الحالة تقدم منها وركع بجانبها وهو يقول: أرجوك لا تقولي ذلك، كل شيء أستطيع تحمله إلاّ هذا، إيّاك مهما حدث بيننا أن تكرهيني يوماً، إيّاك أن تشكّكي في عمق حبّي لك، فأنا لم أحبّ في حياتي أحداً غيرك، وليشهد علي الله أنك امرأتي الوحيدة.

قالت له: كيف تضعني في هذا الوضع، كيف تجعلني عشيقة لرجل يخون امرأته، كيف تجردني من مبادئي، وكل شيء قلت بأنني لن أفعله في أي يوم.

صرخ عليها بعصبية وهو يقول: نحن لسنا معاً منذ سنوات، وهي تعلم ذلك. أنا لم أخنها وإنّما أخون قلبي إن تركتك.

ضمّها إلى صدره، ولم يسمح لها بالهروب، بينما أخذت هي تدفعه بقوة لإبعاده عنها، كانت تضرب صدره ووجهه بيديها، لكنّ جسدها النحيل وقوتها لم تكفِ لإبعاده. أخيراً استسلمت وتوقفت عن المقاومة، ثم تحول بكاؤها لتنهيدات عميقة. أخذ يداعب شعرها الممزوج بكلّ رقة، ثم طبع قبلة على جبينها وهو يقول: أنا لا أستطيع التخلي عنك، لكن ماذا سأفعل بأمّي؟ كيف سأسامح نفسي إن أصابها مكروه ؟ كيف سأتحمل عذاب الضمير هذا؟. كان بين نارين إمّا أن يعيش بدون توليب أو أن يعيش مع عقدة الذنب إن حدث شيء لأمه بسببه. لم تنطق توليب بأيّ كلمة وإنّما حاولت إبعاده مجدداً، لكنّه لم يسمح لها بذلك وإنّما ضمها بقوة أكبر وقال: أرجوك قولي أيّ شيء.

قالت بصوت مخنوق وبالكاد يخرج دعني أذهب.

أحسّ فرات بأنّ هذه القصة الساحرة انتهت تماماً، فهو لن يستطيع التخلي عن أمّه والعيش مع عذاب الضمير هذا، وتوليب لن تسامحه أبداً لإخفائه

الحقيقة عنها، لذلك أفلت قبضته بيأس وهو يعلم بأنّه يتخلى عن الشيء الوحيد الذي يريده في هذه الحياة.

غادرت توليب، فأحسّ فرات وهو يرى خطواتها المبتعدة عنه وكأنّ الأرض توقفت عن الدوران، كأنّ القلب توقف عن النبض، كأنّ روحه تغادر جسده. كان عاجزاً عن إيقافها، لقد راهن على قوة حبّهما لكنّه خسر الرهان، وفي لحظة خسر توليب وخسر قلبه للأبد.

بقاؤه في سيدني أصبح مستحيلاً الآن لذلك بدأ بالتجهيزات للمغادرة، ثم تكلّم مع آدم ليساعده في أمر ما فهو مدين لتوليب بذلك، وعندما علم بماذا حدث بينهما غضب منه غضباً شديداً، فقد تذكر والدته التي عادت له بعد أن أصبح شاباً لتخبره بأنّها تحبّه ولم تنساه، وعلى الرغم من سعادته يومها لرؤيتها لكنّه لم يستطع مسامحتها، أو السماح لنفسه بمعانقتها فرؤيتها فتحت له جراح الماضي. قال له غاضباً لماذا تزوجت إن كنت تريد اللعب والاستمتاع مع النساء؟ لماذا لم تفعل مثلي وتبقى حراً؟.

استمع فرات له من دون أن ينطق بأي كلمة وكأنّه يعلم ماذا يدور في رأسه، وقد أراد منه إفراغ كل غضبه وألمه عليه.

تابع آدم قائلاً هل توليب هي السبب ؟ هل تعرف بهذا الأمر أم أنّها هي من طلبت ذلك منك؟

عند وصول الحديث لهذه النقطة لم يستطع فرات التحمل أكثر وقال له: إيّاك أن تذكرها بسوء، يمكنك أن تقول عنّي ما تشاء لكن ليس عنها.

- هل أخفيت عنها هذا الأمر؟.
- إنّها قصة طويلة، إن هدأت قليلاً سأقصّها عليك من البداية.

قصّ عليه كل ماحدث له وعندما وصل إلى لقائه الأخير بتوليب لم يستطع منع دموعه من التساقط، ففراقه لها كان أصعب شيء يواجهه في هذه الحياة.

نظر آدم إليه بتأثر وإشفاق، وندم على غضبه عليه، فقد كانت هذه هي المرّة الأولى التي يراه فيها وهو يبكي. لم يعلم لماذا تعاطف معه خلافاً لقناعاته؟.

قال فرات: هل تعلم ماهو الجحيم؟

رفع آدم حاجبيه في حركة تشير إلى عدم فهمه ما يقصده فقال له: الجحيم هو كما قال دوستويفسكي ألاّ تستطيع أن تحبّ، تذكّر ذلك جيداً، يوماً ما إن أحببت ستفهم ما أعني.

تابع فرات بألم وحزن بالغان، الآن دعنا نأتي إلى الموضوع الذي طلبتك من أجله. نظر إليه آدم وهو غير مدرك ما الذي يقصده بكلامه هذا.

- أنا سأترك سيدني. سأسافر الأسبوع القادم.
- متى قررت ذلك؟.
- لا أستطيع أن أبقى هنا بعد الآن إنّه أمر مستحيل كما أنّ واجباتي الأخرى تتطلب العودة.
- هل ستعود إلى زوجتك رغم كل شيء؟
- وهل هناك حل آخر؟
- لكنّك تحبّ توليب. كيف ستعيش مع شخص لا تحبّه
- العيش مع شخص لا أحبّه هو أمر معتاد عليه، رغم أنّني لا أعلم كيف سأفعل ذلك الآن. توليب هي الشخص الذي أقلق عليه لذلك أريد مساعدتك في هذا الموضوع.
- مساعدتي أنا؟ ماذا بمقدوري أن أفعل؟.
- رحيلي سيكون مؤلماً لها، لذلك أريدك أن تبقى قربها وتساعدها على تجاوز هذا الوضع، تصرف كصديق يهتم لأمرها فقط.
- لا أدري إن كان بمقدروي مساعدتها، لكنّني أعدك بأن أفعل ما في وسعي.

وافق آدم على طلب فرات لسببين، أولهما أنّه شعر بالحزن عليها فقد أحبّت فرات وهي لا تعرف أيّ شيء عن حياته الأخرى، وثانيهما أنّه احترمها كثيراً لعدم قبولها البقاء معه بعد أن علمت الحقيقة.

قرر فرات المغادرة دون وداع توليب، فهو لن يستطيع تحمل هذا العذاب، كما أنّه غير واثق من رغبتها في رؤيته، فمنذ حديثهما الأخير امتنعت عن لقائه أو الردّ على رسائله، وبعد جدال وصراع داخلي أليم لم يستطع الصمود أمام قلبه العاشق، فأرسل لها برسالة ليطلب لقاءها. وصلتها الرسالة وعندما علمت بأنّه سيترك سيدني بكت بحرقة، فرغم كلّ ما قالته له ماتزال تحبّه، ولا تستطيع تخيّل الحياة من دونه. كان فراق فرات بالنسبة لها كإمساك الجمر بيدين عاريتين، ولسوء حظّها عليها تحمل هذا الألم. عقلها قال لها لا تذهبي، لكنّ قلبها كان عاجزاً عن الإطاعة. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي ستراه فيها فكيف لا تذهب للقائه، كما أنّها لا تريد أن تكون آخر ذكرى لهما معاً هو ذلك اليوم المشؤوم. أخيراً كتبت له رسالة تخبره فيها بموافقتها على لقائه.

تقابلا مجدداً ووقفت تتأمله بعيون حزينة ودامعة، كان هو الآخر محطماً، فهذه هي المرّة الأخيرة التي يراها فيها ويشمّ رائحتها، فلا أحد يعرف ما معنى رائحة الحبيب إلا من أحبّ حبّاً صادقاً، إنّه التحدي الأكبر الذي

يواجهه المنفصلون، فكيف سيستطيع مجابهة سنوات الاشتياق والوحدة بدونها، على الأقل لو نجح العلم في حفظ رائحة من نحبّ بزجاجات دواء كما قالت أحلام مستغانمي في إحدى رواياتها، لكان بمقدوره استنشاق رائحتها كلّما استبدّ به الشوق كأيّ مدمن. فكّر هل يستطيع أن يضمّها اليوم؟ هل ستسمح له بذلك؟

فتح ذراعيه لها يدعوها لتسكن روحه وجسده من جديد فاقتربت منه ببطء ثم وبكل استسلام للقلب عانقته عناقاً يخبره عن كلّ تلك الأشواق التي خبّأتها في داخلها. قالت له: ليكن اليوم هو آخر يوم يجمعنا كحبيبين، دعنا نودّع بعضنا بطريقة تليق بنا وبالحبّ الذي جمعنا، دعنا ننسى لليوم فقط كل ما حدث، اليوم سنعيش الحلم كسندريلا حتى الساعة الثانية عشر ليلاً، وكل ما سنقوله وسنفعله سيبقى هنا، وبعدها سيعود كل شيء لسابق عهده، وينطلق كل منّا في الطريق الجديد الذي رسمته الحياة لنا.

وداعه في ذلك اليوم ذكّرها بجملة قرأتها في رواية جين اير لشارلوت برونتي وماذا قال ادوارد لجين عندما أخبرها بأنّه وجد لها عملاً في بلد آخر وراء البحار **" أشعربأن هناك آلاف الخيوط الرقيقة التي تربط بيني وبينك، هذه الخيوط من السهل قطعها لوحدها، لكنّها تتحد معاً لتشكل حبّلاً محكماً من المستحيل قطعه، يمتد بين قلبي وقلبك، وإنّني أخشى إذا ما**

فصلت بيننا البحور، أن لا يقدرهذا الحبّل على التمدد، ويترك قلبي ينزف دماً ."

أحسّت في تلك اللحظة بكلّ ما أحسّ به ادوارد لكن كان عليها قول شيء آخر تماماً.

- أتمنى لك السعادة مع عائلتك، أعتني بها جيداً.
- وأنت أيضاً اعتني بنفسك جيداً، وتذكري بأنّني سأبقى أحبّك دائماً.

انتهت الليلة وغادر فرات بينما بقيت هي وحيدة. كانت في هذه المرّة لن تراه مجدداً لا في الغد أو بعده، هذه المرة لن تراه إلا بعد الموت في حياة أخرى.

(14)

حيرة وارتباك

بعيد أنت كبعد النجوم والقمر، مبهر أنت كحلم وردي، شهيّ كفاكهة محرمة، وأنا مسجونة في الطرف الآخر من هذه القصة أنتظر حدوث معجزة.

مرّت ساعات على مغادرة توليب للفندق وآدم يبحث عنها بجنون، فرات أيضاً قلق عليها عندما لم تردّ على اتصالاته، وعندما سأل عنها أخبره آدم أنّها خرجت في الصباح الباكر لكنّه لا يعلم إلى أين.

أخيراً عادت وهي غير مدركة بعد لحجم القلق الذي سببته لهما ولدى رؤيتها بخير تنفس آدم الصعداء، فمنذ الصباح وهو يشعر بالخوف وتأنيب الضمير. هرع إليها فور دخولها وقال لها بقلق: لقد أخفتني كثيراً. لماذا لا تردّين على هاتفك منذ الصباح؟.

- أنا آسفة لقد نسيت هاتفي في الغرفة.
- هل يمكن أن نتحدث قليلاً؟

- طبعاً تعال إلى الغرفة.
- توليب أنا آسف على ما قلته لك البارحة، لقد شعرت بالسوء عندما خطر لي بأنّه قد يصيبك مكروه بسببي.
- لا داعي للاعتذار فأنا لست غاضبة منك، كل ما في الأمر أنّني أردت البقاء وحدي لبعض الوقت. أما بخصوص ما قلته البارحة، أنا بحاجة لبعض الوقت كي أعلم ما الذي أريده بالضبط، وحتى ذلك الوقت أتمنى أن نبقى كما كنّا أصدقاء.

رنّ هاتف توليب أثناء حديثهما، وعندما أجابت تنفس فرات الصعداء لدى سماعه لصوتها قادماً من الطرف الآخر وقال لها بغضب: أتصل بك منذ ساعات لماذا لا تردّين على هاتفك، لقد أخفتني كثيراً.

- توقف عن محادثتي بهذه الطريقة وإلاّ سأغلق الهاتف، أنا لست مجبرة على تفسير أيّ شيء لك.

كلام توليب أيقظه من غضبه وجعله يتذكر موقعه في هذه القصة فقال مجدداً: أنا آسف لم ألحظ أن نبرة صوتي كانت عالية بسبب خوفي عليك.

- لقد نسيت هاتفي في الغرفة لذلك لم أرد على اتصالاتك.
- حسناً استريحي الآن ونتكلم لاحقاً. هل نخرج معاً في المساء؟

- حسناً تعال إلى الفندق وبعدها نذهب من هنا مع آدم.

في المساء أتى فرات واجتمع الأصدقاء الثلاثة مجدداً، وعندما سألهما أين يريدان الذهاب، قال آدم: أنا سوف أختار المكان لهذه الليلة، فنحن في حاجة للاستمتاع ما رأيك يا توليب؟ قالت: أنا لا مانع لدي، إن كان فرات لا يمانع.

ذهب ثلاثتهم إلى أحد النوادي في اسطنبول، وهناك كانت أصوات الموسيقا العالية تصدح في كل مكان، والناس حولهم يرقصون ويستمتعون. لم يكن فرات سعيداً بخيار آدم فهو لا يحبّ هذه الأجواء ويعلم أنّ توليب لا تحبها هي أيضاً، وعندما جلسوا على إحدى الطاولات قال لآدم: ما كان عليّ الإنصات إليك، توليب لا تحبّ هذه الأجواء.

أمسك آدم بيد توليب وسط نظرات فرات المتسائلة وغير المصدقة وقال له: هل أنت متأكد؟ هناك كثير من الأشياء تغيرت خلال السنوات الأربع الماضية.

تذكر آدم المرة الأولى التي رافقها فيها للرقص، كان ذلك في بداية تعارفهما وتقاربهما، فبعد رحيل فرات كانت حزينة ومنعزلة، ولكي يخرجها من حزنها،

فكّر بكل الطرق الممكنة التي تجعلها سعيدة، وبما أنّه آدم فقد كان معلوماً ما الذي يفكر فيه.

كان قد وعدها بأنّه سيساعدها على تخطي هذه الفترة المؤلمة، لكنّها في المقابل أعطته وعداً بأنّها ستفعل كل ما يطلبه منها، وعندما أخذها في ذلك اليوم إلى النادي أرادت الرحيل فوراً، فهي لا تشعر بالراحة في الأماكن المزدحمة ولا تحبّ الموسيقا الصاخبة، لكنه رفض الرحيل وأصرّ على البقاء.

أراد منها في ذلك اليوم أن تجرب أشياء جديدة ومختلفة وأن تخرج من المنطقة الآمنة التي تضع فيها نفسها، فخوفها غير مبرر وهي ليست مغامرة على الإطلاق، ولذلك فهي تجهل هذه المتعة وهو سيكون الشخص الذي يعلمها كيف تنطلق وتترك نفسها بلا قيود.

طلب منها أن تستمتع بالرقص والموسيقا ولا تفكر بشيء آخر، وبالفعل رويداً رويداً بدأت تسترخي وتستمتع، كان تركيزها على آدم فقط وهو ما ساعدها على تجاهل المحيط.

قال لها وهما يرقصان ارقصي بكل حرية، ارقصي كزوربا، ارقصي كطفل صغير لا يعنيه شيء في هذا العالم، اصرخي واستمتعي، ولا تدعي أي

شيء يقف في وجهك، فوسط هذا الضجيج لا أحد يهتم لمن حوله، الكل موجود هنا كي يستمتع، وبالفعل استمعت لنصيحته وفعلت كل ما طلبه منها فبدأت تستمتع بالأجواء حولها وفي تلك الليلة رقصت بجنون، وللمرّة الأولى في حياتها أطلقت العنان لنفسها.

عندما تعرّفت توليب على آدم شعرت بأنّه مختلف كثيراً عنها، ولا يوجد أي شيء مشترك بينهما، لكنّ مع مرور الوقت، وكلما اقتربت منه أكثر، بدأت تفهمه أكثر، وتشعر بأنّ هناك جزء منها يشبهه ويحبّه، جزء يشعر بالسرور كلّما كانت برفقته. كان فرات يرضي المرأة التي في داخلها، أمّا آدم فهو يرضي تلك الطفلة التي نسيتها منذ زمن.

سحبّ آدم توليب من يدها وقادها نحو حلبة الرقص، بينما جلس فرات يراقبهما وهو غير مصدق، فعندما التقى بتوليب كانت خجولة ومنطوية وتكره هذه الأجواء، حتى أنّها ارتبكت كثيراً عندما دعاها للرقص للمرة الأولى، أما الآن تبدو مختلفة وكأنها امرأة أخرى، تلك السنوات التي قضتها مع آدم غيّرتها وجعلتها تشبهه.

كانت توليب تسترق النظر إليه بين الحين والآخر وقد لاحظت استياءه من وجودهم في هذا المكان، فهي تعلم بأنّه لا يشعر بالارتياح في هذه الأماكن، فطلبت من آدم الذهاب إلى مكان آخر.

وافق آدم على طلبها بامتعاض وفي هذه المرة كان المكان من اختيار فرات. أخذهم فرات إلى مكان أكثر هدوءاً، وهناك جلسوا للاستماع إلى إحدى المطربات وهي تغني. كان المكان مملاً بالنسبة لآدم، فهو يفضل الأماكن المليئة بالحركة والصخب، لكن بما أنّ هذا هو طلب توليب فلم يعترض.

بعد تناول الطعام استأذن آدم للذهاب إلى الحمّامات، وعندما عاد تجمّد في مكانه وهو يرى فرات يحتضن يد توليب بين يديه، كان كلاهما ينظران إلى بعضهما البعض نظرات مليئة بالحبّ والشغف، وهذا جعل الأمل لديه يذوي وينطفئ كشمعة محترقة. كان متألماً فهو لا قدرة له على مواجهة هذا الحبّ الذي تكنّه لصديقه.

كانا مستمتعان كثيراً بالأجواء، وعندما ذهب آدم إلى الحمّامات قال فرات لها: مدى ستعودين إلى سيدني؟

أيقظها هذا السؤال من استمتاعها وتذكرت بأنّه عليها العودة فقالت له: قريباً جداً.

- هل يمكنني اصطحابك إلى مكان ما قبل سفرك ؟
- إلى أين؟
- إلى المكان الذي تحلمين بزيارته دائماً؟
- لماذا تفعل هذا من أجلي؟

أجابها وهو يحتضن يديها بين يديه لأنّني أفي دائماً بوعودي.

كان كلاهما في عالم آخر ولم يلاحظا آدم وهو يراقبهما من بعيد، لكن عندما رآه فرات وهو يتقدم منهما، أبعد يده من فوق يد توليب كي لا يزعجه.

جلس معهما من جديد لكنّه في هذه المرة كان هادئاً وحزيناً على غير العادة وهو أمر لم يخفى على توليب فسألته: هل أنت بخير؟.

- سأعود إلى الفندق فأنا متعب، وأنتما يمكنكما البقاء والاستمتاع.
- لا سنذهب جميعاً، لقد أتينا معاً وسنذهب معاً.

لدى عودتهما إلى الفندق قالت له قبل أن يغادر إلى غرفته هل حدث شيء أزعجك؟

نظر إليها نظرات مليئة بالحزن والألم وقال لها: ما الذي يجب أن يفعله الرجل حتى تتوقف المرأة عن حبّه؟

- ما الذي تعنيه؟
- لقد رأيتك كيف تنظرين إليه. أنت مازلت تحبّينه رغم كل شيء.
- أنا لن أكذب عليك وأقول لا. مازال لديّ مشاعر تجاهه فكما هو مهم في حياتي أنت أيضاً مهم.
- لكنك لا تحبّيني كما تحبّينه.
- في هذه اللحظة لا أعلم من منكما هو الرجل الذي أحبّه أكثر، وأحتاج لبعض الوقت لأعلم ذلك.
- كيف سامحته على ما فعله بك. لقد تركك وغادر ولم يسأل عنك طوال سنوات؟
- أنا أتفهم لماذا فعل ذلك فهي أمّه في النهاية. صحيح أنه جرحني وأخفى عنّي الحقيقة لكنّني لا أستطيع أن أكرهه. ففراقه أعطاني الفرصة لأكتشف نفسي أكثر وأتعرف عليك.
- أرجوك دعينا نعود إلى سيدني غداً.
- لا أستطيع المغادرة الآن.
- لكن لماذا؟ أم أنّك تريدين العودة إليه؟

- عندما كنت في سيدني بدأت أحسّ بمشاعر عذبة تجاهك، لكنني بقيت أحاربها وأتجاهلها، لأنّه وعلى الرغم من كلّ شيء بقي فرات في قلبي وعندما جاء موضوع المعرض في اسطنبول قررت رؤيته لأنني أريد معرفة حقيقة مشاعري تجاهه، ولن أعود إلى سيدني قبل الحصول على الجواب لهذا السؤال.
- أنا سأعود إلى سيدني غداً وسأنتظرك هناك، لكن مهما حصل تذكّري بأنّني سأبقى أحبّك دائماً سواء اخترتني أنا أم اخترت فرات.

ذهب إلى غرفته وترك توليب حزينة لرحيله، كانت تكره أن تراه وهو حزين لكنّها عاجزة عن فعل ما يريده في الوقت الحالي، فهو يعني لها الكثير ولن تقدم على أي خطوة قد تجرحه خصوصاً بسبب معرفتها لماضيه الأليم، كانت تفضّل تركه ليذهب وهو حزين على أن تعطيه أملاً كاذباً.

في الصباح الباكر ودّعها وغادر بينما بقيت هي حائرة عند مفترق الطرق. كانت تعلم أنّه في النهاية سيمشون جميعهم في الطريق المقدر لهم لكن حتى ذلك الوقت ليس في مقدورها شيء سوى الصبر والانتظار.

(15)

درب جديد

العظمة في هذه الحياة ليست في التعثر ولكن في القيام بعد كل مرة نتعثر فيها.

المهاتما غاندي

بعد رحيل فرات المؤلم، قضت توليب الأشهر الأولى من فراقه في حالة مزرية، لكنّها استجمعت شجاعتها بعد ذلك وأصرّت على الاستمرار بقوة وعزيمة. كان عليها متابعة حياتها لذلك أول شيء فعلته هو ترك الماضي حيث هو وقلب صفحة جديدة في حياتها. خلال تلك الفترة قرأت كتاب قواعد العشق الأربعون لأليف شافاق وقد كان هذا الكتاب كنور أضاء لها عتمة الطريق الذي عليها سلوكه، وأكثر شيء أثرّ فيها في ذلك الكتاب كان إحدى القواعد التي ذكرتها الكاتبة، والتي تقول **" بأنّه على الإنسان عدم مقاومة التغييرات التي تعترض سبيله فكيف يمكنه أن يعرف أن الجانب الذي اعتاد عليه أفضل من الجانب الذي سيأتي.**

قررت بأن تطبّق هذه القاعدة على نفسها، فلن تقاوم التغييرات التي تحدث لها بعد اليوم بل ستمضي في طريقها الجديد، وكما يقولون إنّ أفضل طريقة للنسيان هي استبدال الذكريات السيئة بأخرى سعيدة. كان عليها إيجاد الشيء الذي سيعيد التوازن لحياتها، ويساعدها على الاستمرار في طريق تحقيق أحلامها، لذلك بدأت بالبحث عن فرصة عمل كمساعدة مصور، وبعد عدة محاولات فاشلة نجحت أخيراً في الحصول على فرصة عمل مميزة، كان هذا العمل نقطة تحول في حياتها المهنية، فقد ثقل موهبتها وساعدها على بدء مسيرتها المهنية كمصورة، ومع مرور الوقت بدأت تقوم بمشاريعها الخاصة وتحصل على بعض الأعمال الصغيرة. انتسبت كذلك إلى إحدى المجموعات الخاصة بهواة التصوير، وقد كان الوقت الذي قضته برفقتهم مهماً فهو ساعدها على تعلّم أشياء جديدة.

عالم التصوير واسع والمنافسة فيه شديدة لذلك كان عليها بذل جهد مضاعف كي تصبح مصورة محترفة، فالموهبة وحدها لا تكفي وكي تصبح الأفضل عليها العمل على مشاريع كثيرة للوصول إلى المستوى المطلوب واكتساب الخبرة الضرورية للمنافسة.

كانت توليب متأثرة بـ "جوي لورانس" وقد تعلّمت منه الكثير من الأشياء، أهمها أنّه على المصور السعي دائماً وراء أفكاره دون الخوف من الفشل،

فإذا نجح يكون قد أضاف شيئاً جديداً لمسيرته كمصور احترافي، أمّا إذا فشل فسيكون قد تعلّم من أخطاءه. تعلّمت منه أيضاً أنّ أهم شيء للمصور هو الشغف فهو يساعده على الصمود في وجه التحديات الكبيرة التي يمرّ بها، فالشغف في كلّ شيء هو سرّ النجاح، ولحسن حظّها كان المصور الذي تعمل معه يحبّ التصوير الوثائقي ومعظم أعماله حول ذلك.

خلال فترة عملها معه سافرت في رحلات كثيرة حول العالم، تعرّفت خلالها على حضارات وبلدان مختلفة، وهناك تعلّمت ضرورة التعرف على البلد وحضارته قبل البدء بالتصوير فمن المهم بناء جسر من التواصل بينها وبين الناس كي يشعروا بالراحة والانسجام مع من يصورهم، كذلك من المهم أيضاً فهم طبيعة المكان الذي تريد تصويره وتشكيل رابط روحي معه.

تنقّل توليب من بلد لآخر ساعدها على تجاوز حالة الحزن التي عاشتها، ويمكن القول أنّ شخصيّتها تغيّرت كثيراً خلال تلك السنوات، فقد نضجت وأصبحت ترى الأشياء من منظور مختلف.

زياراتها لتلك القرى النائية حيث الناس لا تعرف أيّ شيء عن التلفاز أو آلات التصوير، جعلتها تبتعد عن هذا العالم المعقّد والغارق في الماديات، وترى الحياة ببساطة وعفوية، فقد كانت رؤية الأطفال وهم سعداء ومبهورين

من أشياء بسيطة كرؤية صورهم وكأنّه حدث خارق للطبيعة لا يعادله أي شيء في هذا العالم.

كانت كمية السعادة التي شعرت بها مع أولئك الناس كافية لتضميد جراحها، ورغم علمها بأنّ الحبّ هو وحده القادر على إضاءة قلبها من جديد، لم تحاول السعي وراء حبّ جديد، فهي تؤمن بأنّ الحبّ هو من يجدك وليس أنت من تجده، وعندما حان الوقت لذلك بدأ الكون بإرسال إشاراته لها كي يقودها نحو درب جديد فتحه لها يوم تحدثت مع ألين. يومها لاحظت شيئاً بقي غافلاً عنها لوقت طويل، فعلى الرغم من دخول آدم إلى حياتها واهتمامها الواضح به كانت ماتزال ترغب بتواجد فرات إلى جانبها.

حاولت لأيام تجاهل هذه الحقيقة لكنّها لم تستطع وفجأة وجدت نفسها تسأل آدم عن فرات، وعندما علمت أنّه يعيش في اسطنبول، فرحت في البداية لكنّها عادت وفكرت ماذا سيغير وجوده هناك؟ لم تكن واثقة بأنّها قادرة على عيش هذه التجربة مرّة أخرى خصوصاً بعد أن استعادت السيطرة على حياتها. كانت تريد رؤيته لتعلم إن كانت ماتزال تحبّه كالسابق لكن هل ستجرؤ على ذلك؟.

قرار السفر كان مربكاً ومخيفاً، فحتى لو ذهبت إلى اسطنبول واكتشفت أنّها ماتزال تحبّه فماذا سيتغير؟ هل ستنتهي العوائق بينهما؟ إنّه مازال متزوجاً وهي لن تكون معه مادام متزوجاً.

بقيت توليب عاجزة عن حسم الأمر حتى جاءتها الإشارة الأخيرة. في ذلك اليوم ذهبت توليب إلى إحدى الحدائق للاختلاء بنفسها، وعندما كانت تلتقط بعض الصور هناك وجدت امرأة مسنّة تجلس على أحد المقاعد، ولدى رؤيتها لتوليب مع آلة التصوير بدأت بمحادثتها. فكرت توليب نحن نشعر براحة وحرية للتكلم مع أناس غرباء لأنّنا لن نراهم مجدداً، وهذا يجعلنا نقول أشياء لا نتجرأ على قولها في العادة.

سألتها توليب لماذا تجلسين وحدك؟.

- لأنّني فقدت نصفي الآخر منذ زمن قريب.
- أنا آسفة لسماع ذلك، من الرائع أنّ الحياة أعطتك الفرصة كي تكوني مع الشخص الذي تحبّينه.
- الحياة لا تعطيك شيء يا صغيرتي، أنت من عليك القتال للحصول على ما تريدينه.

- حتى لو كان هذا يجرح شخصاً آخر؟ كيف تشعرين بالسعادة وأنت تبنين سعادتك على حطام شخص آخر؟.
- أنت غير قادرة على إعطاء السعادة أو التعاسة لأيّ أحد فهذه هي مسؤوليته الخاصة. فكري قليلاً ماذا تفعلين إذا وجدت شخصاً ما يسبب لك الألم والتعاسة؟.
- أبتعد وأرحل.
- أرأيت إنّه اختيارك، أنت من يقرّر وضع حد لهذا البؤس. هل يستطيع شخص آخر اتخاذ هذا القرار نيابة عنك؟

شعرت توليب براحة لسماع هذا الكلام، وعندها قررت فتح قلبها لهذه المرأة فأخبرتها بحكايتها، استمعت المرأة المسنّة لقصتها من دون قول شيء وعندما انتهت قالت المرأة المسّنة لها: هل تعتقدين أنكما اتخذتما القرار الصحيح بالانفصال؟.

- أعتقد ذلك.
- هل كان لهذه التضحية أيّ قيمة ؟ هل وجدتما السعادة بعد الانفصال؟.

بدأت توليب تفكّر بكلام السيدة المسنّة ولم تعلم ماذا عليها أن تجيب؟ وعندما رأت السيدة حيرتها قالت لها: انظري ياصغيرتي برأيي المتواضع من

كان عليه اتخاذ ذلك القرار هو زوجته وليس أنت، لأنّ رحيلك سيجعل الجميع تعساء، بينما رحيلها سيجعلك أنت وهو سعيدين وينهي تعاستها، عليها أن تجد الطريق بنفسها فالرجل الذي يستحقها والذي يجعلها سعيدة ينتظرها في مكان ما.

- أتفهم خوفها من هذا القرار الصعب، فعندما تخسرين الحبّ ستعانين لوقت طويل حتى تتجاوزي هذا الألم، كما أنّنا نخاف من المجهول لذلك نفضّل البقاء في الجانب الذي اعتدنا عليه حتى لو لم نكن سعيدين.
- عليك يا صغيرتي اتخاذ القرار الذي يخصّك، فمسؤوليتك تجاه نفسك وليس تجاهها . في بعض الأحيان علينا أن نكون أنانيين وليس هناك أي خطأ في ذلك.
- وماذا عن تأنيب الضمير؟.
- أنت لم تؤذيها لتشعري بتأنيب الضمير. عليك أن تقرري هل تريدينه أم لا؟ أنت الآن أمام خيارين إما نسيانه تماماً والتطلع لمستقبلك بدونه، أو الذهاب إليه قبل فوات الآوان.
- ماذا لو أنّه لم يعد يحبّني ونسيني؟

- إذاً هو ليس نصفك الآخر، وعليك تركه والبحث عن الحبّ الحقيقي، لكن ماذا لو كان هو أيضاً ينتظرك؟ كيف ستعلمين الحقيقة إن لم تذهبي لرؤيته؟

كلام السيّدة المسنّة ساعدها على اتخاذ القرار الصحيح، وفي النهاية حسمت أمرها وقرّرت رؤيته. فكيف باستطاعتنا تجاهل نداء القدر عندما يحين الموعد.

(16)

الأمنية الثالثة

حضورك وعد للقلب، عيد للحبّ، جمر للشوق، حضورك أمل ببدايات جديدة، أمل بسلام طال انتظاره، وانتصار لقلب لم يتوقف يوماً عن النبض لك.

استيقظت توليب حزينة فآدم سيغادر اليوم وليس في استطاعتها إقناعه بالبقاء، أمّا هي فقد كان عليها البقاء في اسطنبول لمعرفة جواب السؤال الذي أتت من أجله.

ذلك الصباح اتصل آدم بفرات وأخبره برحيله وعلى الرغم من صدمته لدى سماعه قراره المفاجئ بالمغادرة إلاّ أنّه أحسّ بالراحة لابتعاده عن توليب، وبما أنّه غادر الآن قرر فرات أخذها إلى قونيا.

فكّرت توليب كثيراً في زيارة قونيا لكنّها لم تستطع فهذا المكان هو المكان الوحيد الذي يجب أن تزوره وفرات معها، واليوم تعطيها الحياة فرصة جديدة

لتحقيق هذا الحلم. أعدّت حقيبة صغيرة للسفر بعد أن اتصل بها فرات وأخبرها بذهابهما إلى هناك، وقبل أن تغادر وقفت أمام المرآة لتعيد ترتيب شعرها المبعثر وتصلح من هندامها، فتفاجأت بذلك البريق الذي عاد للظهور مجدداً في عينيها، كان الفرق كبيراً جداً بين اليوم الأول لها في هذا الفندق وهذا اليوم، مذهل كيف يغيرنا الحبّ. توجها مباشرة نحو المطار فقد قرّرا السفر إلى هناك بالطائرة لأنّ الرحلة تستغرق وقتاً طويلاً بالقطار. قدومها إلى المطار ذكّرها باليوم الأول لوصولها لاسطنبول فأحست بغصّة وألم يعتصر فؤادها، ولم يخفى هذا عن فرات لكنّه فضّل الصمت فلا شيء يقوله الآن سيغيّر ما حدث. خلال الرحلة تذكّرت توليب اليوم الذي سافرا فيه إلى مدينة قريبة من سيدني لشراء كتاب له. كان مولعاً بالأشياء الأثرية خاصة الكتب القيّمة والنادرة، وهو يقوم بشرائها وترميمها ثم يحتفظ بها ضمن مجموعته النادرة. تَذكُر أنّهما بحثا عن ذلك الكتاب مطوّلاً لكن دون جدوى وعندما فقد الأمل من إيجاده علم صدفة من أحد أصدقائه أنّ هناك نسخة منه في تلك المدينة. أراد وقتها الذهاب بمفرده لأنّ الرحلة ستكون متعبة لها لكنّها أصرت على مرافقته.

استيقظا باكراً جداً في ذلك الصباح، فموعد انطلاق القطار السريع كان في الساعة السادسة صباحاً وعليهما الوصول في الوقت المحدد. طوال الطريق

حدّثها عن هذا الكتاب وشرح لها أهميته، بدا سعيداً جداً كشخص ذاهب للقاء حبيبته ولا يطيق صبراً للوصول إليها، وعندما وصلا إلى المدينة انطلقا مباشرة إلى المتجر، وهناك طلب الكتاب ليتفحصه.

كانت تتأمّله وهو يقلّب صفحات الكتاب بحرص بالغ، كانت نظراته... ابتسامته... لمساته الرقيقة للكتاب وخوفه عليه تأسرها، فقد نسي كل شيء حوله وكل ما يعنيه كان ذلك الكتاب فقط. بدا وكأنّه في عالم آخر، كأنّه رجل متيّم التقى بحبيبته الغائبة منذ زمن بعيد. كم تعشق هذا الرجل القادر على عيش كل تلك المشاعر مع كتاب.

تجوّلا بعد ذلك في المدينة وزارا الأماكن التي يقصدها السياح في العموم، وأخيراً ذهبا في جولة إلى المكتبة العامة التي تعتبر أشهر مكتبة في البلاد. كان هذا عالمه الذي يحبّه وأرادت في ذلك اليوم أن تكون جزءاً من هذا العالم، أرادت أن يكون يومه رائعاً ولم تقل لا لأي شيء أراده.

وصلا قونيا بعد وقت قصير وتوجها إلى أحد الفنادق هناك، كان الفندق صغيراً نسبياً لكنّه حميمي ودافئ، وعلى ما يبدو بُنِيَ على الطراز القديم في المدينة ليتماشى مع روح وهويّة المدينة التي تجاوز عمرها السبعمائة عام. الشيء الغريب الذي لفت انتباهها فور وصولهما هو وجوب خلع الأحذية

وارتداء ما يقدمه الفندق، الشيء الذي ذكرّها بالتقاليد والعادات السائدة في بلدها، فعندما تذهب لزيارة أي عائلة عليك خلع الحذاء قبل الدخول.

كان فرات منهمكاً بإتمام إجراءات الحجز بينما هي تنظر حولها بفضول، وعندما انتهى فرات صعدا كلاهما إلى غرفهما ليضعا الأمتعة ويستعدا للخروج. دخلت توليب إلى غرفتها ومن سعادتها فتحت يديها كالأجنحة، ودارت حول نفسها كما يفعل الأطفال، ثم ألقت بنفسها على السرير وهي تصرخ بفرح نحن هنا معاً.

قضت بعض الوقت في الغرفة ثم استعدت وخرجت لملاقاته وعندما رأته قادماً نحوها سألته بفضول وحماس إلى أين سنذهب؟.

- سنذهب أولاً إلى حديقة الفراشات.

بدت متفاجئة وأعادت ما قال بشيء من الاستغراب

- حديقة الفراشات!! هل يوجد حديقة للفراشات هنا؟.

- نعم يوجد ولأنّني أعلم كم أنت مولعة بها قررت اصطحابك إلى هناك. كانت متحمسة جداً ولا تطيق صبراً للوصول، ومن حسن حظّها أن المكان لم يكن بعيداً جداً، وعندما دخلت هناك كانت مذهولة فلم تتوقع أبداً رؤية هذا العدد الكبير من الفراشات المختلفة، بعضها كان مميزاً حقاً ويستوقفك.

كان المكان فريداً فهنا يستطيع المرء أن يرى كل المراحل التي تمر بها الفراشة.

فجأة لفتت نظرها إحدى الفراشات، فأشارت إليها وهي تقول انظر كم تبدو رائعة سألتقط لها بعض الصور، وعندما أخرجت آلة التصوير من حقيبتها، لاحظ أنّها مازالت تستخدم آلة التصوير التي اشتراها لها في عيد ميلادها.

كانت تعشق التصوير لذلك وقبل أن يشتري لها هدّية بعيد ميلادها، أخذها في جولة إلى السوق وهناك توقفا قرب أحد المحلات التي تبيع الأجهزة الالكترونية. نظرت إلى آلات التصوير المعروضة وأعجبتها إحداها لكنّها لم تفكر في شرائها لأنّها باهظة الثمن، وعندما جاء عيد ميلادها تفأجات بأنّ فرات اشتراها لها كهدية وأصرّت على إعادتها فهي تعلم أنّها باهظة الثمن لكنّه رفض ذلك، ومنذ ذلك اليوم أصبحت آلة التصوير تلك رفيقتها.

أخبرها فرات بعد خروجهما من الحديقة بأنّه سيصطحبها إلى السوق القديم، وسألها ما إذا كانت ترغب في التجوّل في شوارع المدينة فأومأت رأسها بالإيجاب. كانت فكرة التجوّل رائعة فهذا سيعطيها الفرصة لالتقاط الصور والتعرّف على الناس أكثر.

أثناء سيرهما تلامست أيديهما من غير قصد، فنظرا إلى أعين بعضهما البعض من دون كلام، لم يكن هناك حاجة لقول أي شيء فقد قالت عيناهما كل شيء، كانا يفهمان بعضهما البعض عبر الصمت وكأنّ لهما لغة خاصة بهما، تماماً كما في مقولة شكسبير **" هناك كلام لا يقول شيء وهناك صمت يقول كل شيء".**

لدى صولهما إلى السوق انبهرت توليب بالأشياء الجميلة التي رأتها هناك، وعندما كانت تهمّ بدخول أحد المتاجر قال لها: انتظريني هنا حتى أعود. لم تعلم لماذا غادر فجأة وقررت أن تسأله حال عودته. لم يستغرق غيابه وقتاً طويلاً أو هكذا اعتقدت لانشغالها بالنظر إلى الأشياء الجميلة داخل المتجر، وعندما عاد سألته بفضول أين ذهبت؟.

- لدي صديق يعمل هنا وقد ذهبت لإلقاء التحية عليه.
- هذا المكان رائع وقد احترت ماذا عليّ أن أشتري.
- أظنك أغرمت بهذه المدينة.
- تبدو هادئة ومسالمة والناس هنا طيّبون جداً، يرحّبون بك أينما ذهبت، ولا يتوانون عن تقديم المساعدة عندما يعرفون أنّك غريب.
- سأصطحبك إلى أحد المطاعم المشهورة التي تعدّ المأكولات التقليدية للمدينة.

وصلا إلى المطعم وأثناء تناولهما الطعام سألته توليب: هل أتيت من قبل لزيارة هذه المدينة؟.

- نعم أتيت مع أحد أصدقائي لنزور عائلته هنا.
- وما كان شعورك عند زيارة هذا المكان للمرة الأولى؟.
- كان شعوراً فريداً جداً وكأنني في رحلة عبر الزمن.
- شيء غريب يحدث لك عند دخول هذه المدينة، وكأنّ الحبّ الذي تحدّث عنه الرومي منذ أكثر من سبعمائة عام مازال قائماً هنا، متغلغلاً في كل شيء ويتسرّب تدريجياً لقلبك، كأنّ البيوت والشوارع كلها تنطق، لقد أحبّبت هذه المدينة وبرأيي يجب تسميتها مدينة الحبّ نسبة له أيضاً.
- مازلت كما عرفتك شاعرية ورومانسية في كل شيء.

عادا للفندق وهناك ودّعها ودخل إلى غرفته، وقبل أن يغيّر ملابسه، أخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة مرصعة بالصدف، ووضعها قرب السرير. خلد فرات للنوم وهو يشعر براحة ومسرّة افتقدها منذ زمن، كان يتطلع إلى الغد فهو اليوم الذي سيَفي فيه بجميع وعوده لها، هي أيضاً قضت ليلتها تلك في هدوء وسلام، وفي الصباح استيقظت بشكل مختلف، وكأنّ هذه

المدينة تملأ روحها بشحنة من الإيجابية والسعادة، فكلّ شيء حولها حتى الهواء مليء بالحبّ.

استعدّت بسرعة وخرجت للقائه وعندما نزلت إلى صالة الطعام رأته جالساً على إحدى الطاولات يتناول قهوته ويقرأ إحدى الجرائد، ابتسمت فور رؤيته فليس هناك شيء أجمل من أن تبدأ يومها برؤيته، ولدى وصولها قربه تبادلا التحية ثم جلست وهي تقول له: هل هناك صباح أجمل من أن تصحو في قونيا؟

- سعيد لأنك تحبّين المكان.
- إلى أين سنذهب اليوم؟.
- إلى المكان الذي أتينا لزيارته.

وصلا إلى المكان المنشود، وهناك لم تصدّق بأنّها تقف أخيراً في المكان الذي حلمت فيه لأعوام. لم تعلم ما هو هذا الشعور الذي راودها فجأة، أهو الحماس، الخوف، السرور، أم خليط من كل ذلك. تجوّلا داخل المتحف وهي تنظر حولها مبهورة بما تراه، وعندما وصلا إلى المكان الذي يرقد فيه الرومي وقفت ساكنة هناك. أغلقت عينيها وتركت نفسها للسكينة المحيطة بالمكان، وعلى الرغم من أنّ المكان كان يعج بالزوار لكنّها شعرت بهدوء

غريب وكأنّها تقف وحدها. أيقظها صوت فرات من سكينتها وهو يسألها، هل أنت بخير؟. أجابت هل يمكنك أن تتركني وحدي قليلاً ؟. تفاجأ من طلبها هذا، لكنّه اكتفى بالإيماء بالإيجاب والابتعاد.

وقفت وحدها قرب ضريحه تماماً كما تخيّلت مرات عديدة ، تحدثت معه مطوّلاً وقبل أن تغادر قالت له: لقد وجدت شمسي أنا أيضاً، لقد قطعنا درباً طويلة معاً لكنّني لا أعلم أين سننتهي، أتمنى أن يكون قدومنا اليوم هو بداية حياة جديدة لنا " **ألم تقل بأنّ الحبّ يتهدم بسهولة ويصبح ركاماً من تلقاء نفسه لكن الكنوز تتوارى بين الأنقاض**" الآن سأنصت إليك وسأصلّي من أجلنا، من أجل نعمة الحبّ التي وهبنا إياها الله، من أجل أن نعثر على السّلام أخيراً.

وقف بعيداً يسترق النظر إليها، ولم يفهم لماذا طلبت منه البقاء وحدها، وعندما رآها تقترب لم يستطع منع نفسه من سؤالها لماذا أبعدتني عنك؟ كنت أودّ كثيراً أن نتشارك تلك اللحظة معاً.

- كان قلبي بحاجة إلى الصفاء ليرى النور، ولذلك أردت التكلّم معه على انفراد، لكن إذا أردت الكلام تعال لنتشارك لحظة أخرى هناك فدائماً هناك متّسع في قلبه لنا.

ذهبا كلاهما ووقفا قرب ضريحه من جديد وهناك قال فرات

- لقد قُلتَ يوماً دع روحك تجذبك بصمت إلى ما تحبّه، فإنّها لن تضلّك أبداً، لكن ماذا لو كانت مخطئة؟.

فهمت توليب بأنّه يوجّه هذا السؤال لها فأجابت: إنّه يقول " الجميل يجذب الجميل، إن شئت فاقرأ الطيّبون للطيّبات."

عند خروجهما وجدا عند الباب ملصقاً يقول بأنّ هناك حفلة لرقص الدراويش في المساء، وقد لاحظ فرات بأنّ توليب مهتمة بهذا الملصق فسألها هل تريدين الحضور؟.

- أليس عليك الرجوع إلى اسطنبول اليوم؟.
- لابأس نستطيع البقاء يوماً آخر.
- وماذا عن عملك؟.
- سأقوم بالاتصالات اللازمة ونمدد إقامتنا ليوم آخر.

خرجت من المتحف سعيدة لكنّ مفاجآت لذلك اليوم لم تنتهي فقد قال لها فور خروجهما من المتحف سآخذك إلى مكان مميز الآن.

استقلا سيارة أجرة لكنّ توليب لم تستطع التكلم معه وسؤاله عن المكان الذي سيذهبان إليه، فقد كان مشغولاً بالتحدث مع السائق ولذلك اكتفت بمراقبته.

كم تحبّ هذا الرجل الذي يزرع البهجة في قلبها بنظراته الساحرة، كم تعشق ابتسامته التي أسرتها منذ لقائهما الأول، وجعلتها تشعر بأنّ العالم كله يبتسم، كم تعشق صوته الهادىء والحنون الذي قال لها يوماً أعشقك، والذي لم تفلح يوماً في محوه من ذاكرتها، كم تعشق تلك اليدين اللتين امتدت بالسلام لها، والتي لم تنسَ يوماً دفء لمساتهما، كم تعشق تلك العينين اللتين رمقتاها بحبّ أضاء عتمة الحزن في قلبها، حتى تلك التجاعيد التي بدأت بالظهور حول عينيه تعشقها. فجأة ومن غير أن تعي قالت له وهي ماتزال غارقة في تلك المشاعر الفياضة أعتقد أن طلابك في الجامعة محظوظين جداً.

نظر إليها باستغراب وكأنّه لم يتوقّع هكذا تعليق، وللحظة لم تصدّق أنّها قالت هذا الكلام؟ عادت وقالت بارتباك ظهر جلّياً على وجهها ما أعنيه هو أنّك أستاذ مميز بدون شك.

رفع حاجبيه في حركة عدم تصديق لما يسمع، ثم قال ضاحكاً: ما أدراك بذلك ربما أنا على عكس ما تتوقعين.

أجابت بحكم معرفتي بك لا أظنّني مخطئة أبداً.

كانت تعرفه جيداً فهو من الأشخاص المحبّين للأخرين والمسالمين، لا يحبّ أبداً كلمة كره ولم تسمعه يوماً يستخدمها. تذكرت عندما سألته عن هذا الأمر قال لها بأن كلمة كره هي كلمة تحمل مشاعر سلبية لذلك لا يفضل استخدامها. كان عطوفاً على الآخرين ومتفهماً، ومهما كان المستوى الثقافي للشخص الذي يتكلم معه يستطيع التأقلم معه، وهو لا يحبّ من ينتقدون الآخرين بشكل فظ ويعتبرون هذا حرّية شخصية وتعبير عن الرأي، فإن كان لدى أحد ما معرفة فإنّ ذلك لا يعطيه الحق في انتقاد الآخرين بشكل جارح خصوصاً الحالمون فلا يجوز أن نقتل حلمهم، وإن لم يكن في مقدورنا مساعدتهم فلا يجب أن نحطم أحلامهم ونحبّطهم، لا يحق لأحد أن يسرق أحلام الآخرين فالجميع يستحقون الفرصة للمحاولة مرة ومرتين وثلاثة. نحن طبعاً نستطيع إبداء رأينا والانتقاد بطريقة صحّية وموضوعية تساعدهم على التطوير، المشكلة الكبيرة هي من يعتقد بأنّه هو الوحيد الذي لديه المعرفة والموهبة، الغرور لا يجعله يرى بأنّ التنوع هو أساس الحياة، وأنّ ما يقدمه قد لا يعجب الكثيرين، فنحن لدينا أذواق مختلفة، والله خلقنا مختلفين بتفكيرنا واهتماماتنا، لذلك ما أحبّه وأراه من ذوقي الشخصي، أشخاص آخرون قد لا يرونه كذلك.

توقفت سيارة الأجرة أمام إحدى الشركات، وهناك رأت عدداً من الأشخاص مجتمعين أمام إحدى الحافلات الصغيرة. أشار إليها وسط استغرابها للتقدم وركوب الحافلة معهم وبعد وقت قصير انطلقت بهم الحافلة نحو وجهتهم المجهولة وعندما توقّفت أخيراً نزلت توليب لترى أروع مشهد على الإطلاق، دهشتها كانت لا توصف فقد كانت واقفة وسط بحر من أزهار التوليب.

(17)

جرأة أم حقيقة

ما هي الشجاعة؟ هل هي في الجرأة والتحدي أم في قول الحقيقة؟

مضى على رحيل فرات سنتان كاملتان، كانت ماتزال تحبّه لكنّها لم تعد تفكّر فيه كالسابق، ففي كلّ مرّة تتذكّره فيها يعتريها شعور بالألم والحزن، ولذلك أقفلت على قلبها ورمت بمفتاحه إلى أعماق بحر النسيان.

كان الجميع قد صُدموا عندما علموا بما حدث بينها وبين فرات، وخصوصاً عمّتها فريدة فهي لم تتوقع منه أن يتصرّف بهذا الشكل، ألين بدورها شعرت بالذنب لأنّها شجّعتها على التقرّب منه، ورغم جميع محاولات توليب لإقناعها بأنّه لا ذنب لها لم تنجح في ذلك، ولكي تصحح خطأها عرّفتها على أشخاص جدد علّها تجد السعادة مع رجل آخر، لكنّ توليب لم تكن مهتمة بأيّ من هؤلاء الأشخاص، فالشخص الوحيد الذي تقضي معه معظم الوقت هو آدم، ورغم إصرارها الدائم على أنّهما أصدقاء كان اهتمامها به

واضحاً، هو أيضاً كان مهتمّاً بها ولكنّه لا يفصح عن ذلك، ولذلك وضعت ألين خطّة لجعلهما يواجهان الحقيقة، ولكي تبدأ بتنفيذ خطتها طلبت منهما مرافقتها إلى أحد النوادي. كانت تعلم أنّ آدم يتردد كثيراً على هذا المكان، ولذلك فهو المكان المناسب لتنفيذ الجزء الأول من خطتها.

عندما وصلوا إلى هناك كانت الأمور تسير بشكل طبيعي حتى اللحظة التي بدأ فيها أصدقاؤه بالتوافد، ونظراً لشهرته الواسعة أتت العديد من النساء لتسلّم عليه، وعندما كان يتكلم مع إحدى النساء لاحظت نظرات توليب إليهما، فقالت لها في محاولة منها لاستفزازها

- إنها امرأة جميلة أليس كذلك؟ يبدو أن آدم مهتم بها.
- إنّها جميلة لكن آدم ليس مهتماً بها، كما تعرفين آدم لا يدخل في علاقة جديّة مع أيّ امرأة.
- لا تكوني واثقة، يوماً ما ستنجح إحدى النساء في امتلاك قلبه.

شعرت توليب بالضيق من كلام ألين وعيناها لا تفارقان آدم، كانت تراقبه بحذر واهتمام، فاستغلت ألين ذلك وضغطت عليها أكثر.

- لماذا أنت مهتمة بآدم ومن يواعد؟
- من قال أنّني مهتمة بذلك؟

- لأنّك لم تبعدي نظرك عنه.
- لا تتكلمي بسخافة إنّه صديقي.
- هل هذا فقط؟.
- وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟.
- هل من الممكن أنّك تغارين عليه؟.

نظرت توليب إليها وهي غير مصدقة لما سمعت وأجابت

- أنت جننت فعلاً، سأذهب إلى الحمّام ومن الأفضل أن تعودي لرشدك قبل أن أعود.

دخلت توليب إلى الحمّام وهي مانزال تفكّر بكلام ألين، ورغم غضبها منها كان هناك جزء صحيح في كلامها لكنّها لا تريد تصديقه.

نظرت إلى نفسها في المرآة وقالت: ألين جنّت، كيف تفكر في هذا الأمر؟ آدم صديق فرات ولا يمكنني أن أُعجَبَ به أبداً. لكن لماذا أتضايق من وجود النساء حوله؟.

كان على ألين الانتقال إلى الجزء الثاني من خطتها والذي يتضمن آدم، فهو الآخر يتهرّب من مشاعره ويتجاهلها، ولقد ظنّ أنّه في استطاعته خداع ألين، لم يعلم أن اهتمامه بتوليب واضحاً وضوح الشمس ومن المستحيل أن

يقدر على إخفائه. رتبت ألين لقاء توليب مع أحد أصدقائها، وبعد أن ذهبا معاً إلى المقهى لشرب القهوة، تقدّم صديق ألين وانضم إليهما. طبعاً لم تنسى إخبار آدم بأنّ توليب خرجت في موعد دبرته لها مع أحد أصدقائها، فقد حان الوقت لتمضي في حياتها، وكما توقعت كانت فكرة مواعدة توليب لرجل آخر صادمة له فمنذ انتهاء علاقتها بفرات لم يرها مع أيّ رجل آخر. فكّر ما الذي تغيّر كي تقبل توليب بمواعدة رجل آخر الآن؟ ولكي يتأكد من صحّة هذا الأمر حاول التصرّف بذكاء وعَرفَ المكان من ألين.

غادرت ألين المكان وسط نظرات توليب الغاضبة، وعندما كانت تفكّر في طريقة لخروجها من هذه الورطة وصلتها رسالة من آدم يسألها فيها ماذا تفعل؟. شعرت بأنّ هذه الرسالة وصلت في الوقت المناسب فبعثت له برسالة تطلب فيها مساعدته. ابتسم آدم لدى وصول رسالتها، وعلى الفور فهم أنّ الأمر ليس كما تخيّل.

شعر الرجل الجالس مع توليب بالسوء وهو يراها منشغلة عنه بالهاتف وتتجاهله، فاعتذرت منه بطريقة لبقة وقالت: أنا آسفة، إنّها مسألة مهمة وقد اضطررت للرد.

أخبرها آدم أنّه قادم لإنقاذها، لكن سيكون هناك مقابل لهذه الخدمة، ولدى وصوله إلى المقهى تقدّم وألقى التحية على الرجل الجالس قبالة توليب، ثم جلس بجانبها وهو يقول: كيف حالك حبيبتي، أين ألين؟ ألم تخبريني بأنك خرجت معها في الصباح؟.

شعرت توليب بالحرج الشديد لدى سماعها لهذا الكلام واحمرّ وجهها خجلاً ثم قالت بارتباك: لقد خرجت قبل قليل لأمر هام.

قال آدم للرجل بعد جلوسه: أنا آدم، لقد سررت بلقائك، هل أنت صديق توليب؟ شعر الرجل بالارتباك وقال بصوت متردد:أنا صديق ألين وهذه المرة الأولى التي أرى فيها توليب.

بدأ آدم يتصرّف وكأنّه حبيب توليب حقاً، فمنذ جلوسه وهو يعانقها ويلاطفها، بينما هي شعرت بالخجل لقيامها بهذه اللعبة مع آدم، وبعد مرور بعض الوقت اعتذر الرجل منهما وغادر.

نظرت توليب إلى آدم بغضب وقالت له: هل هذا ما فكرت به؟.

- ألست أنت من طلبت إنقاذك؟.
- نعم لكنّني لم أتوقع أبداً ان تتصرف هكذا.

- لا يهم كيف تصرفت المهم هي النتيجة، لكن في المرّة القادمة فكري قبل الخروج في موعد مع رجل لا تعرفينه.
- هل ظننت حقاً بأنّني قد أفعل ذلك؟ ألين هي من دبّرت هذا الأمر، أنا واثقة من ذلك، سأقتلها عندما أراها.
- هل أنت جاهزة لدفع المقابل لهذه الخدمة التي أديّتها لك؟.
- ماذا تريد؟.
- لا شيء مهم، سنلعب لعبة تعرفينها جيداً.
- ما هي؟.
- جرأة أم حقيقة. مع العلم أعرف مسبقاً ماذا ستختارين، فمن غير الممكن أن تختار توليب الكلاسيكية الجرأة فهي أجبن من ذلك.
- هل تتحداني؟.
- أنا أقول الحقيقة فقط، هل أبدأ بطرح سؤالي؟.
- لا لأنّني سأختار الجرأة في هذه المرّة.
- هل أنت واثقة من قرارك هذا، فأنا لن أتساهل معك مطلقاً إنّني أحذرك.
- لقد حان الوقت لترك توليب الكلاسيكية قليلاً.
- حسناً لكن لا تلوميني بعد الآن.

ذهب آدم وتوليب إلى بيته وهي لا تدري بعد ما الذي يخطط له، وعندما دخلا طلب منها الجلوس ريثما يحضر شيئاً ما. كانت تشعر بالتوتر فتحدي آدم لها جعلها تختار الجرأة وهو أمر لا تفعله عادة، كان محقاً فيما قاله فهو يعرفها جيداً. تقدم آدم وهو يحمل بيده مقص، ثم وضعه أمامها وقال لها وهو ينظر في عينيها: أخبرتك بأنّني لن أتساهل معك مطلقاً، هل أنت مستعدة للتخلي عن شعرك الساحر؟. لم تستطع توليب التكلم من وقع المفاجأة، فآخر شيء توقعته هو أن يطلب منها قصّ شعرها. تابع قائلاً: هل تمتلكين الجرأة لفعل ذلك أم أنّك ستهربين؟. توليب لم تقصّ شعرها قصيراً من قبل فهل ستفعل ذلك اليوم؟

قالت وبكل تحدي: أنا اتخذت قراري قبل القدوم إلى هنا ولن أتراجع الآن.

أمسك آدم بخصلات شعرها الطويل بين يديه، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يلمس فيها شعرها الخلاّب ولوهلة شعر بالندم وفكّر بالتراجع، أمّا هي فقد أغمضت عينيها ولم تفتحهما إلاّ عندما انتهى.

قالت له: أعطني الشعر الذي قصصته أرجوك.

ضحك آدم وقال بسخرية لماذا؟ هل ستحتفظين بشعرك المقصوص كذكرى؟

أجابت: سأتبرع به من أجل المصابين بالسرطان.

لم يتفاجئ آدم من هذه الإجابة، فقبل أسبوعين ذهبا معاً لحضور أحد العروض المسرحية الكوميدية، وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تذهب فيها توليب لحضور هذا النوع من العروض. يومها تفقدت جميع العروض لتلك الليلة، وفي النهاية اختارت عرضاً وجدته غريباً، كان اسم العرض (Finding chemo) والاسم مأخود من فيلم الأطفال المعروف والمشهور (Finding Nemo)، شعرت بالفضول يومها لمشاهدة هذا العرض، ولم تندم أبداً على قرارها هذا، فالمقدم تكلم عن فترة إصابته بمرض السرطان ورحلته الكاملة منذ أن علم بإصابته إلى الجراحة التي خاضها وجلسات العلاج الكيميائي والأشعة، كانت تنظر إليه وهي غير مصدقة كيف تحدّث عن هذه التجربة القاسية برؤيا مختلفة وجعل الحاضرين يتفاعلون معه ويضحكون على نكاته، لقد ذكر معاناته في تلك الرحلة وكيف تعامل الأطباء والممرضات والناس معه، كانوا يعبرون عن تعاطفهم معه بأشكال مختلفة، فالأطباء عمليين ومباشرين ويتحدثون بعلم ومنطق وبعيداً عن العاطفة، أمّا الناس فعلى العكس من ذلك، وكل مجموعة كان لها رأيها بمسببات هذا المرض وكيفية مواجهته تبعاً لاعتقاداتها وإيمانها. كان هدفه من هذا العرض هو أن يعرّف الآخرين بالأخطاء التي يرتكبونها عندما يتعاملون مع مرضى السرطان، ففي النهاية كل ما يريده المصابون بهذا

المرض هو أن نتصرف معهم كأناس طبيعين وليس كأناس مرضى، فأحياناً كثيرة عندما نحاول إظهار تعاطفنا بنيّة طيبة نتصرف بشكل غير لائق ونقول كلاماً غير مناسب. أثر هذا العرض كثيراً على توليب ولامسها من الداخل، وشعرت بالتقدير الكبير لهذا الرجل الذي واجه هذا المرض الصعب بحبّه للحياة وتفاؤله.

شعر آدم بالسعادة لدى رؤيته لتوليب بهذه القوة فقد واجهت هذا التحدي بكل صلابة وبقيت متماسكة. قبل عامين من الآن لم تكن بهذه القوة ولو أنّ هذا حدث وقتها لكانت تصرفت بشكل مغاير.

كان فخوراً بها ولذلك جلس قبالتها ووضع يديه حول وجهها وهو يقول: أنت أقوى بكثير مما اعتقدت، ولا تظنّي أنّني فعلت هذا للمتعة فأنا حزنت أيضاً على هذا الشعر الرائع لكنّني أردتك أن تغوصي عميقاً في داخلك، وتواجهي التحديات التي تخيفك، أردتك أن تحبّي نفسك بأيّ شكل كنت، فأنت جمالك الحقيقي ليس في هذا الشعر وإنّما بداخلك، والدليل على ذلك هو أنك مازلت فاتنة حتى مع هذا الشعر القصير.

- أجمل ما حدث لي في هذه الحياة هو أنّني التقيتك. أنت دائماً تجعلني أتحدى نفسي وأواجه ما أظنه مستحيلاً. الآن هل أستطيع أن أرى شكلي بهذا الشعر القصير؟.
- حسناً لكن عديني بأنّك لن تكرهيني عندما ترين هذا الشعر القصير.
- تعلم بأنّني لن أفعل، ثم أنا من وافقت على ذلك في النهاية.

شعرت بالغرابة لدى رأيتها نفسها لأول مرة بالشعر القصير، ونظرة من التحدي ظهرت في عينيها. ابتسمت لنفسها في المرآة وقالت: وداعاً يا توليب الكلاسيكية وأهلاً بتوليب المغامرة.

غادرت منزل آدم وتوجهت للقاء ألين فقد كانت ماتزال غاضبة منها بسبب ما فعلت، وعندما رأتها ألين بهذا الشعر القصير، شهقت من المفاجأة وقالت لها باستغراب كبير: ماذا حدث لك؟ متى قصصت شعرك؟.

- إنّها قصة طويلة سأخبرك بها لاحقاً، لكن فسري لي أولاّ لماذا دبرت لي موعداً مع صديقك هذا الصباح؟.
- لقد أردتك أن تتعرفي على أصدقاء جدد.
- لو لم يأتِ آدم وينقذ الموقف كنت سأريك ماذا سأفعل بك.

ابتسمت عندما تأكدت بأنّ خطتها نجحت وقالت لها: من حسن الحظ أنّه موجود دائماً من أجلك.

- ماذا تقصدين بذلك؟
- اعترفي بأنّك معجبة بآدم، لا أفهم لماذا تصرّين على الهرب من مشاعرك تجاهه؟

أجابت توليب بشيء من العصبية ليس لدي مشاعر تجاه آدم.

- إن كنت تجرؤين على الكذب، قولي هذا وأنت تنظرين داخل عيني.
- لا أستطيع حمل أي مشاعر لآدم، هذا أمر مستحيل.
- لكن لماذا؟.
- لأنّه صديق فرات، لا أستطيع أن أحبّ صديق فرات.
- لقد تركك منذ أكثر من عامين. ليس هناك أي سوء في حملك مشاعر لآدم.
- أرجوك أغلقي هذا الموضوع الآن.

صمتت ألين لكن شيئاً ما داخل توليب لم يصمت ، كانت تشعر بكل كلمة قالتها لها لكنّها تهرب من هذه المشاعر وتتجاهلها.

كان لقاء توليب وآدم شيئاً مقدراً، فهي كانت في أمسّ الحاجة إلى شخص يعلّمها كيف تعيش الحياة، وكيف تثق بنفسها من جديد، وتكون جريئة ومغامرة، وفي المقابل كان على توليب أن تعلّم آدم كيف يثق بالنساء مجدداً، وكيف يفتح قلبه للحبّ من دون خوف، لذلك رتّب الكون لقاءهما وجمعهما معاً. كان كلاهما بحاجة للآخر ليداوي جراحه البليغة، ويجعل منه إنساناً أكثر سعادة وهذا ما حدث فعلاً.

(18)

رقصة الدراويش

كلّما دعوتني للرقص حافية القدمين على طريق العشق المفروش بالأشواك، أمدّ لك يدي من جديد وأقول مدد يا ربي مدد.

كانت حقول التوليب بألوانها البديعة حولها أينما نظرت، وكأنّها تقف أمام قوس قزح من الأزهار.

نظرت إليه باستغراب وقالت: إنّها مفاجأة رائعة كيف فعلت ذلك؟

أجاب: إحدى الشركات المنتجة لأزهار التوليب تنظّم رحلات للأشخاص الراغبين بزيارة حقولهم، وقد تكلمت معهم وحجزت لهذه الرحلة.

أخذت تلتقط الصور لهذه الحقول الجميلة ولم تنتبه لفرات إلاّ عندما رأته يتقدم منها حاملاً باقة من أزهار التوليب، تفاجأت وفكرت في قرارة نفسها، معروف عن أزهار التوليب بأنّها رمز الحبّ والإخلاص، فهناك أسطورة إيرانية تقول أنّ شاباً من إريان اسمه فرهاد أحبّ فتاة اسمها شيرين، وفي

اليوم الذي ماتت فيه ركب حصانه وقفز من أعلى الجبل، وعندما نزفت دماؤه نبتت من كل قطرة نازفة زهرة توليب، فأصبحت هذه الزهرة تشير إلى الحبّ الصافي والحقيقي، ومن التقاليد الإيرانية أن يعبر الشاب عن حبّه للفتاة بإعطائها زهرة توليب باللون الأحمر وتعني أنا مشتعل بحبّك، فهل من الممكن أنّ تكون هذه الأزهار هي اعترافه بأنّه مازال يحبّها؟.

رأى فرات معالم البهجة والسرور تعلو وجهها، وهذا شيء أسعده كثيراً، فالشيء الوحيد الذي يريده في هذه الحياة هو أن تكون مسرورة، لكن عندما أخبرها بأنّ الأزهار هديّة من الشركة المنظّمة تبدّدَ فرحها، ولكي يعيد الغبطة إلى بهاء وجهها مدّ يده إلى جيبه وأخرج علبة خشبية صغيرة ثم قال لها وهو يعطيها العلبة، اشتريت لك تذكاراً صغيراً من هذه المدينة، أتمنى أن تعجبك. حملت العلبة الصغيرة بين يديها وأخذت تتأملها، كانت مصنوعة من الخشب الغامق ومرصّعة بالأصداف البيضاء.

أشار لها فرات بأن تفتح العلبة وترى ما بداخلها، وعندما فعلت وجدت في داخلها قلادة فضيّة معلّق بها زهرة توليب. لم تعلم متى تمكّنَ من شراء هذه الهديّة فطوال الوقت كان معها ولم يفارقها، وبعد تفكير قليل استنتجت بأنّه اشتراها أثناء زيارتهما للسوق القديم.

قال فرات: أردت أن أهديك زهرة توليب لا تموت، فأكثر شيء يعبّر عن هذه المدينة هو زهرة التوليب أو كما يسمّونها زهرة الحبّ.

حملت القلادة بين يديها وقالت له: شكراً لك إنّها ساحرة. هل تساعدني على ارتدائها من فضلك.

وضع القلادة حول عنقها، وعندما انتهى طبعت قبلة صغيرة على وجنته وهي تقول: هديتك هذه تعني لي الكثير، لن أنسى هذا اليوم أبداً.

قبلتها الرقيقة تلك أضرمت لهيب العشق في قلبه أكثر وأكثر، وجعلته يرغب بالمزيد. كانت هذه الرحلة أجمل شيء حصل له منذ وداعه لها في سيدني، لكنّ وقت الرحيل يقترب، فهل سيكون طريقه نحو بداية جديدة معها أم نحو الفراق؟.

عادا إلى الفندق كي يستريحا. كان متعباً من ملاحقة الأفكار له فاستلقى على السرير ليرتاح قليلاً. كان غاضباً من ضعفه تجاهها وقال معاتباً نفسه: كيف ظَننتَ أنّ الماضي انتهى وأنّ سنوات الفراق قد قتلت ذلك الحبّ؟ ترى هل حضورها المفاجئ هو من فتح عينيك على الحقيقة أم أنّها كانت هناك دائماً وأنت لم ترها؟ لماذا مازلت تقترب منها في الوقت الذي يجب عليك فيه الابتعاد؟.

كان مرتبكاً ولا يعلم ما هو الأفضل لهما، ولكي يهرب من تلك الأفكار استحمَ وبدّل ثيابه، ثم نزل لاحتساء كوب من القهوة.

في الغرفة المجاورة كانت توليب مستلقية على سريرها وتفكر بكلّ ما حدث معها اليوم. كانت زيارتها للضريح أكثر ما أثرّ فيها، فقد انتابها شعور رائع من الألفة والسكينة، والطاقة الإيجابية للمكان والمريدين الذين جاؤوا سعياً وراء العشق الإلهي أعطتها دفعة إيجابية هائلة، فهناك تفكر بالحبّ الصافي لجميع البشر، وتتعلّم بأنّ العشق الإلهي هو السّر في هذه الحياة.

أرسل فرات رسالة يخبرها فيها أن تستعد كي يخرجا معاً للعشاء، وبينما كانت على وشك الخروج تذكّرت الكلام الذي قاله لها قبل أن يفترقا بأيّام. يومها أمسك بيديها وقال لها بنبرة فيها الكثير من الحزن إن حصل وافترقنا في يوم من الأيّام، أريدك أن تبقي صديقتي مدى الحياة. فاجأها يومها بكلامه هذا وبحركة لا شعورية سحبّت يديها من بين يديه وقالت له: لا يمكنني ذلك. سألها مستغرباً لماذا؟ فأجابت: لأنّني أحبّك، وكي أكون صديقتك يجب أن أتوقف عن حبّك. صمت وقتها ولم يقل أي شيء ربما لأنّه لم يستطع الاختيار بين بقائها بجانبه رغم الانفصال ومعرفته بأنّها توقفت عن حبّه، أو خسارتها تماماً ومعرفته أنّها مازالت تحبّه.

صلّى يومها ألاّ يأتي يوم يختار فيه بين هذين الاحتمالين، لكن يحدث دائماً في الحياة ما نخشاه. سخرية القدر جعلت الأدوار تنقلب يوم افترقا، فتوليب هي من طلبت منه أن يبقوا أصدقاء، رغم علمها التام بأنّها غير قادرة على ذلك، لكنّه خذلها ورفض الأمر تماماً. ربما فضّل يومها خسارتها تماماً مقابل معرفته أنّها مازالت تحبّه.

نزلت للقائه وفي الطريق تساءلت لماذا لم ننجح في أن نصبح أصدقاء؟ هل يا ترى لأنّنا مازلنا غارقين في الحبّ؟. ارتدت خصيصاً لذلك المساء ثوباً أبيض اللون ووضعت فوقه سترة سوداء طويلة كزيّ الراقصين الصوفيين.

تفاجأ لدى رؤيتها بهذه الثياب وقال لها مازحاً: لقد اعتقدت أنّنا ذاهبان للمشاهدة فقط.

قالت: لقد أردت أن أرتدي مثلهم اليوم كي أشعر بهذه الطاقة أكثر.

ذهبا لتناول العشاء وبينما كانا ينتظران وصول الطعام، سألها: هل كنت سعيدة بزيارة الضريح اليوم؟ أعلم أنك تعشقينه.

- عندما كنت واقفة قرب ضريحه فهمت معنى الجملة التي قالها " أنت عاشق لتجربتك الشعورية ولست عاشقاً لي، فإنك حين تأتيني تأتي لتستحضر حالتك النابعة منك أنت".

- لديك دائماً رؤية مختلفة للحياة.

مرة أخرى أدهشه جوابها فلطالما كانت امرأة مميزة، فمنذ لقائه الأول بها لفتت انتباهه باختلافها، فهي لم تكن من النساء اللواتي يستعملن مساحيق التجميل، وثيابها دائماً بسيطة، وعندما تتكلم تحسّ بحرارة وحبّ في صوتها الهادئ والحنون وكأنّه يخرج من روحها.

تابع كلامه لها وسألها: ألا تفكرين بتغيير أي شيء في شكلك كباقي النساء؟

- أنا لا أحكم على أحد وأقول بأنّ مفهوم التجميل صحيح أو خاطئ لكنّني أحبّ نفسي كما أنا بكل العيوب الموجودة في وجهي وفي جسدي.
- أنا أتفهم بأنّ هناك حالات تستدعي ذلك، لكن أينما نظرت الآن تجدين بأنّ النساء أصبحن نسخاً مكررة. على سبيل المثال ظهور ممثلة مشهورة بشفاه ممتلئة كان كفيلاً بجعلها مقياساً للجمال، بغض النظر إن كان هذا يناسب الجميع أم لا، والآن تحوّل عدد كبير من النساء لنسخ متشابهة، نسخ مزيفة وليست حقيقية.

- ربما بعد عدة سنوات سنرى ممثلة جديدة بصفات جسدية أخرى تتسلق سلم النجاح والشهرة، وعندها سيختلف مفهوم الجمال وتبدأ حمى جديدة بالظهور.
- لا أدري لماذا بعض الناس عاجزين عن الفهم بأنّ الجمال نسبي ويختلف من شخص لآخر، فالله خلقنا مختلفين لسبب وجيه وإلاّ أليس قادراً على جعلنا جميعاً نسخاً متطابقة؟ إنّه يفهمنا أكثر مما نفهم أنفسنا، لكنّنا نحن البشر لا نعرف خطأنا إلاّ بعد فوات الأوان.
- لا أفهم لماذا تعاني النساء من مشكلة فقدان الثقة بالنفس، والرغبة الدائمة بأن تكون كما يريدها الرجال. الجمال هو في الاختلاف وليس للجميع نفس الذوق.
- تَقبّل الإنسان لذاته بجميع عيوبه وأخطائه ليس أمراً سهلاً، إنّه رحلة طويلة وشاقة لكنّها ليست مستحيلة.
- عندما نقبل بأنّنا جميعاً لدينا عيوب وأخطاء، فهذا يساعدنا على تقبّل الآخرين بحبّ ومسامحتهم حتى عندما يخطئون في حقنا.

كانت فرات يرغب بسؤالها عن علاقتها بآدم لكنّه خائف ومتردد وكلّما فكّر في فتح الموضوع يجبن ويتراجع، لكنّ اليوم قرر مجابهة هذا الخوف وإنهاء

الصراع الذي في داخله فقال لها: لم أعلم بأنك أصبحت صديقة مقربة من آدم في غيابي.

- لقد ساعدني على تجاوز الأوقات الصعبة في حياتي، وعلى الرغم من الصورة التي يحاول دائماً الظهور بها استطعت أن أرى كم هو إنسان نبيل، أنت لم تكن موجوداً وليس لديك أدنى فكرة عمّا مررت به في تلك السنوات، آدم فعل كل شيء كي يجعلني سعيدة.

تألم لدى سماعه كلام توليب لسببين، أولهما هو عدم وجوده قربها في تلك الفترة الصعبة، وثانيهما هو قربها من آدم. أراد أن يعتذر منها لكن ما الذي يعنيه الاعتذار الآن هل سيعوضها عن الألم الذي عاشته بسببه؟

ذهبا إلى المركز الثقافي مشياً فقد كان الطريق إلى هناك قصيراً وتوليب ترغب بالسير في شوارع المدينة بما أنّ هذا هو اليوم الأخير لهما هناك. كان مايزال يفكر بكلامها، ولم تعد لديه القدرة على التظاهر أكثر، لذلك جذبها إلى مكان فارغ ودفعها برفق على أحد الجدران ثم قال لها: هل تحبّين آدم يا توليب؟

صدمت من تصرفه هذا فقد كانت تراه بهذه الحالة للمرّة الأولى لكنها سيطرت على نفسها وأجابته بحزم: هذا ليس المكان المناسب لنتكلم حول هذا الأمر.

لدى سماعه لتلك الإجابة أصبح أكثر جنوناً وغضباً، ولم يعلم كيف يسيطر على نفسه، فأمسك بذراعيها بقوة وشدّها بقسوة ثم قال لها: لا تصيبيني بالجنون أكثر وأجيبيني.

- لماذا تهتم إن كنت أحبّه أم لا؟ ألم تتركني منذ أربعة سنوات؟
- قولي فقط كلمة واحدة نعم أم لا.
- أنت تؤلمني.

تذكّر والده في تلك اللحظة فهو اعتاد على التصرّف بعنف عندما يغضب، ولدى وصول تفكيره لتلك النقطة أرخى يديه الممسكة بها بقسوة، فرأى علامات يديه على جسدها وأحسّ بندم شديد. لم يستطع التصديق بأنّه فعل شيئاً كهذا لها وآذى أكثر شخص يحبّه في هذه الحياة.

تمالكت توليب نفسها رغم خوفها وقالت له: لن أجيبك عن أيّ سؤال تسأله وأنت بهذه الحالة، إذا أردت سؤالي عن شيء فليس بهذه الطريقة.

لم يعلم ماذا عليه أن يفعل فهي غاضبة جداً ومعها كلّ الحق في ذلك، كان يريد التكلّم معها ولكنها لن تصغي له الآن لذلك فضّل الصمت وتأجيل الكلام لوقت لاحق.

تابعا سيرهما بصمت إلى المركز الثقافي وعندما وصلا، دخلا إلى الصالة وجلسا جنباً إلى جنب بانتظار بداية العرض. كانا لا يتكلمان وتوليب تحاول جاهدة نسيان ما حصل والاستمتاع بالحفلة.

كان الراقصون سيؤدون رقصة صوفية اسمها سما وهي من أكثر الرقصات المعبرة. تتألف من سبعة أقسام وكلّ قسم يعبر عن غاية معينة، فالدوران هو المبدأ الأساسي للوجود فكلّ شيء في الكون يدور حول رب الكون، والدراويش أيضاً يدورون بعكس عقارب الساعة وهذا هو دليل التحرر من القيود.

بدأت الحفلة وشيئاً فشيئاً بدأت توليب تستعيد توازنها، كان إدراك الإنسان لذاته ولخالقه، والاستسلام الكامل لقوى الحضرة الإلهية يتجلّى هناك بكل وضوح. بَدأَ الدراويش بخلع العباءة السوداء التي تغطي ثيابهم والتي هي رمز للجسد الفاني وبقوا بلباسهم الأبيض الذي هو رمزاً للكفن، ثم أخذوا بعد ذلك يدورون ببطء وأيديهم مغلقة حول صدورهم. كانت أقدامهم اليسرى التي

تمثل الشريعة ثابتة، بينما أقدامهم اليمنى التي تمثل الدنيا وما عليها تتحرك، وبينما أيديهم اليمنى ممدودة نحو الأعلى لتتلقى الحبّ الإلهي، كانت أيديهم اليسرى ممدودة نحو الأسفل لتنشر هذا الحبّ على كامل الخلق.

خلال الحفلة كان تركيزها على ما يجري في الأسفل، بينما فرات كان يسترق النظر إليها بين الحين والآخر. كل شيء حولها كان متكاملاً الموسيقا والأصوات والراقصين والحاضرين، كلّهم أصبحوا واحداً وانتقلوا إلى مستوى آخر من الإدراك. هناك لم تشعر كيف مرّ الوقت وانتهت الحفلة.

خرجا من القاعة وهما صامتان وغارقان في عالمهما الخاص، كأنّ ما حدث في الداخل مازال مستمراً في أعماقهما. استقلّا سيارة أجرة واتّجها إلى الفندق، دخلت توليب إلى غرفتها ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها، لم تعلم عمّا كانت تبحث بالضبط لكنّها لاحظت شيئاً مختلفاً فقد كانت تشعر بالسلام والراحة، وكأنّ صورتها المنعكسة في المرآة هي لشخص آخر تراه للمرة الأولى في حياتها، ابتسمت وألقت التحية على روحها الساكنة في هذا الجسد، ثم وقفت في منتصف الغرفة وضمت يديها حول صدرها كما يفعل الدراويش وبدأت بالدوران للمرة الأولى في حياتها، بدأت تدور وتدور بلا توقف حتى لم تعد تشعر بأي شيء حولها. نامت تلك الليلة بعمق وكأنّها

طفل صغير لا يعنيه شيء في هذا العالم، وعندما استيقظت اعتراها شعوران متناقضان فهي حزينة لترك هذه المدينة لكنّها في نفس الوقت سعيدة بكلّ ما حدث معها هنا.

كانت تعدّ حقيبتها وتستعد للخروج عندما سمعت طرقاً خفيفاً على باب الغرفة، وعندما فتحت الباب رأت فرات واقفاً أمامها. كانت ماتزال منزعجة منه بسبب ما حدث في الليلة الماضية، لكنّ بما أنّه أتى ليعتذر فقد قررت منحه فرصة أخرى.

أخبرها فرات بأنّه لم ينم طوال الليلة الماضية، فقد شعر بالندم وتأنيب الضمير على تصرفه الأرعن ويريد الاعتذار منها.

قالت له: لقد سامحتك لكن إذا أردت أن تسألني عن شيء في المرة القادمة فليس بتلك الطريقة، هذا ليس منصفاً لا لك ولا لي ولا حتى لآدم.

- أعدك بأنني لن أفعل هذا مرة أخرى.

ذهبت توليب ووقفت بجانب النافذة بينما جلس هو على الأريكة، ولكي يزيل هذا التوتر الحاصل بينهما منذ البارحة غيّر الموضوع وسألها: ما رأيك في حفلة البارحة؟.

- لقد كانت طريقة رائعة لإنهاء زيارتي لهذه المدينة.

- عندما تأتين إلى هذا المكان لمرة واحدة سترغبين دائماً بالقدوم.
- وأنت ما هو رأيك؟.
- لقد شاهدت الكثير من الحفلات، لكنّ حفلة البارحة كانت مميزة ومختلفة، هل بسبب الحفلة أم بسببك أنت لا أدري.

صمت كلاهما بعد ذلك، حتى اللحظة التي قرّر فيها فرات استجماع شجاعته مرّة أخرى وإعادة فتح موضوع آدم لكن بهدوء أكثر في هذه المرّة. كان عليه في ذلك اليوم اكتشاف الحقيقة ومواجهتها مهما كانت فلم يعد قادراً على مواجهة هذا الشك بعد الآن.

(19)

أمل في نسيان الماضي

في ليالي الفراق الطويلة أحسّ بشوق لا محدود إلى سماع صوتك الساحر، ولمرات كثيرة أضبطك تتجوّل في شراييني وتتسلل بهدوء إلى داخلي فأهرب إلى مخبأنا السرّي وأضيء لك شمعة تستدلّ بها عليّ، فأنا كما قال جلال الدّين الرومي لا أراك ولكنّي ألقاك فرؤية العين رؤية ورؤية القلب لقاء.

شعرت حياة بالابتهاج بعد أن علمت بعودة فرات إليهم، فالنسبة لها انتهت معركتها أخيراً مع منافستها بانتصار كبير، لكنّ تلك الغبطة لم تدم طويلاً فبالبرغم من عودته كان عاجزاً عن العودة إلى ذلك الرجل الذي لم يعرف العشق يوماً، وعندما حاولت التقرب منه مجدداً والضغط عليه قال لها: هل تعتقدين بأنّني سأتوقف عن حبّ توليب لأنّنا افترقنا؟ لقد اتهمتني بأنّني أناني ولا أفكّر إلاّ بنفسي، قولي لي من منّا هو الأناني الآن. لقد اخترت أن تجعلي ثلاثتنا تعساء بينما كان في مقدورك منحنا فرصة أخرى لإيجاد السعادة.

- أنا لم أدخل حياة رجل ليس لي. هي من أتت وسرقتك مني.
- إنّ هذا الوهم في رأسك فقط، توليب موجودة دائماً في قلبي حتى من قبل أن أراها ولذلك كنت عاجزاً عن حبّ امرأة أخرى.
- لماذا لم تحبّني كما أحببتها؟ بماذا أختلف عنها حتّى تعاملني بهذه الطريقة؟ هل هي أجمل مني؟ هل أحبّتك أكثر مني؟.
- القلب هو من يقرر من يحبّ.
- أنا أحببتك دائماً وكنت مخلصة لك، حتى أنّني تحملت جميع تصرفاتك السيئة. ماذا فعلت لك حتى تعاقبني وتجرحني بهذا الشكل؟.
- لم تكن غايتي يوماً أن أؤذيك، أرجوك قولي لي ماذا أفعل وكيف أجبر قلبي على حبّك؟.

كوى الألم قلب حياة لدى سماعها لتلك الكلمات، ومع ذلك صمتت وتركته على أمل أن يداويه البعد بالنسيان. كانت واثقة من انتهاء هذا الأمر قريباً وعودة فرات إلى سابق عهده، لذلك قررت التحلي بالصبر حتّى تمرّ تلك العاصفة، لكن ومع مرور الأيّام بدأ أملها في التضاؤل وهي ترى علاقتهما تصبح أسوأ، فمنذ عودته أصبح أكثر حزناً وتعاسة، كان يتجنب الجميع حوله، حتى أمّه شعرت بخطورة الوضع وهي ترى حالة ابنها البائسة والمزرية. كان ينزلق منهم يوماً بعد آخر وهم عاجزين عن فعل أي شيء،

في أحد الأيّام أحسّ فرات بقليل من التوعك، فقرر الذهاب إلى المستشفى للقيام ببعض الفحوصات، وهناك التقى بطبيب العائلة، وبعد أن قام الطبيب بإجراء التحاليل اللازمة له، وجد الفرصة مواتية ليسأله عن وضع والدته الصحي فمنذ عودته وهو دائم القلق عليها. تفاجأ الطبيب من سؤاله فعلى حدّ علمه أنّ صحة والدته جيدة ولا يوجد ما يدعو إلى القلق، وعندما أخبره أنّها دخلت إلى المستشفى في حالة خطرة، تفحّص الطبيب ملفّها ولم يجد ما يشير إلى دخولها المستشفى بوضع حرج.

فجأة انهار كل شيء في عالم فرات، وشعر بالغضب والحزن والندم فقد خسر الشيء الوحيد الذي يريده في هذه الحياة مقابل كذبة قيلت له. غادر المستشفى وأول شيء فعله هو العودة إلى منزله، فمازال غير قادر على التصديق بأنّ ما حدث كان كذبة، وعندما وصل إلى هناك تفاجئ بوجود أمّه وعلى الفور طلب من حياة مرافقته إلى غرفته. حاول فرات جاهداً منع نفسه من الانفجار غضباً، وقال لحياة في نبرة أرادها هادئة قدر الامكان

- سأسألك سؤالاً واحداً يا حياة، وإيّاك أن تكذبي علي. لقد اتصلت بي عندما كنت في سيدني وقلت لي بأنّ أمي في المستشفى، وعندما طلبت منك مكالمتها قلت لي بأنّها لا تريد التحدث معي حتى أوافق على العودة. هل كذبت علّي يا حياة؟.

بقيت صامتة وأطرافها ترتعد من الخوف. لم تحسب حساباً لهذه اللحظة وأنّه سيأتي يوم وسيعلم كل شيء.

صرخ في وجهها كالمجنون أجيبيني هل فعلت ذلك؟

- أنا ..... أنا .....
- هذه هي النهاية بيننا. هل سمعت؟

فتحت أمّه الباب عند سماع صراخه وقالت له: حياة لا ذنب لها، أنا من طلبت منها فعل ذلك.

لم يصدق فرات ما سمع وقال لأمّه: لا أصدق ما تقولين. أنت تحاولين حمايتها.

- لم يكن هناك طريقة لإيقاظك من جنونك سوى هذه الطريقة، فالبرغم من كل ما قلته لك عدّت إليها وتركت تلك الرسالة السخيفة لحياة. كان علي إنقاذك من جنونك.
- لقد حطمت قلبي يا أمّي وآلمتني كما لم يفعل أحد من قبل.
- أنا ضحيت بكل شيء من أجلك ومن أجل أخوتك. كيف تقول لي هذا الكلام؟
- أنا أحبّها يا أمي ولا أستطيع العيش بدونها.

- هل ستتخلى عن أمك من أجل تلك المرأة؟.
- أنا لم أنسى ما فعلت من أجلنا، وطوال حياتي عملت جاهداً لإسعادك، لكنني ولأول مرّة في حياتي سأفعل ما يسعدني. سأغادر هذا البيت.
- ماذا تعني بأنّك ستغادر؟ هل ستعود إلى تلك المرأة؟.
- مع الأسف لا يمكنني ذلك فقد خسرتها بسببكما، والآن أنتم ستخسروني لأنني قررت الانتقال إلى مدينة أخرى.

عندما ترك فرات سيدني أحسّ بسوء كبير، فهو لم يخسر توليب فقط وإنّما كان عليه العودة إلى السجن الذي هرب منه منذ سنوات، ومنذ عودته كل يوم قضاه هناك كان كالجحيم بالنسبة له، فقد شعر بالذنب وتأنيب الضمير ليس فقط بسبب ما فعله لتوليب، وإنّما أيضاً بسبب الطريقة التي تعامل بها مع حياة. كان يعلم بأنّ حياة لا ذنب لها في هذا الأمر، لكنّه كان عاجزاً عن تغيير مشاعره تجاهها أو التصرف بطريقة مغايرة، وهكذا شعور الحزن والألم وتأنيب الضمير رافقه حتى اللحظة التي عرف فيها الحقيقة.

قرر فرات أخيراً وضع حدّ لهذا العذاب، لذلك سافر إلى اسطنبول وعاش في المدينة التي يحبّها، كان يريد البدء بحياة جديدة لكنّه ومع الأسف خسر توليب إلى الأبد أو هكذا اعتقد.

عند قدومه لاسطنبول كان كل شيء مؤلماً، لكنّه يوماً بعد آخر بدأ يعتاد على الوضع الجديد، فانتقاله إلى مكان آخر ساعده على تخطي الأوقات الصعبة وأصبح كل شيء أقل ألماً تدريجياً. مرّت السنوات وهو يحارب قلبه العاشق، في البداية ظنّ أنّ ابتعاده وقطعه كافة الاتصالات بينهما سيعطي الفرصة لكليهما بالنسيان، لكنّه مع مرور الوقت علِم كم كان مخطئاً، فتوليب بقيت دائماً أكثر شيء يؤلمه ويسعده بنفس الوقت.

هل القدر هو من جمعهما مرّة ثانية؟ توليب حتماً تعتقد ذلك فهي قدرية، ترى بأنّ هناك سبباً لكل شيء يحدث في هذه الحياة، وتترك نفسها لأمواج الكون تأخذها أينما تشاء، بينما هو رجل عملي ومخطط يؤمن بأن الإنسان هو من يصنع قدره. في الماضي تجادلا كثيراً حول ذلك وحاولت إقناعه بوجهة نظرها، أمّا الآن يبدو أنّ الحياة هي من تكفّلت بذلك.

كان دائم التفكير بها ولمرات عديدة قرّر التحلّي بالشجاعة للاقتراب منها مجدداً، لكنّه وفي كل مرّة كان يجبن ويتراجع فهو لا يريد إيذاءها مجدداً، ولأنّه يحبّها بهذا العمق وهذا الجنون فقد كان عليه التخلي عن أنانيّته والتفكير بمصلحتها. كان عليه أن يدعها بسلام فالحبّ يعني أن تضحّي من أجل من تحبّ، وهو في هذه المرّة سيقف في وجه شوقه وحنينه لها وسيفعل الصواب.

وصلت اللحظة المنتظرة وحصل أخيراً على الطلاق. لم يصدق أنّه أصبح حراً وفي استطاعته البقاء مع المرأة التي يحبّها، لكنّ كيف السبيل إلى ذلك بعد مرور ثلاث سنوات على الفراق والانفصال؟ ماذا لو أنّها نسيته ولم تعد تحبّه؟ هل من العدل أن يعود إليها ويسبّب لها الألم والمشاكل؟.

كان خائفاً من الاعتراف بأنّه يخشى رؤيتها مع رجل آخر، ولا يستطيع القبول بأنّها تخلّت عنه ونسيته تماماً. كان يفضل الابتعاد عنها والعيش على أمل كاذب على الاقتراب منها ومعرفة ما قد يجرحه أو يؤلمه. كان عنيداً ومكابراً ولذلك تابع حياته بعيداً عنها ولم يرضخ لتلك المشاعر التي حاصرته وحاولت إجباره على العودة إليها، حتى أنه دفن ذكرياته في مكان عميق يصعب الوصول إليه، وعندما رضي أخيراً بقدره الحزين وقبل الخسارة، أتت وطلبت رؤيته.

رؤيتها من جديد خلطت الأوراق مجدداً، وتلك النّار التي ظنّ بأنّها انطفأت لم تنطفئ وإنّما خبت وسكنت في ثنايا القلب المحترق بانتظار رياح العشق لتوقدها من جديد. كانت حياته موحشة وخاوية إلى اللحظة التي رآها فيها من جديد.

تذكر اليوم الأول للقائها في اسطنبول، كان قلقاً ومتوتراً وفي عقله تتصارع عشرات الجمل، لكنّه وللمرة الأولى منذ الفراق كان سعيداً. قبل قدومها إلى اسطنبول كان يعيش في المنطقة الرمادية وهو أكثر شيء يكرهه في هذه الحياة، فعندما غادر سيدني أقنع نفسه بأنّ هذا الحزن سينتهي، ومع مرور الوقت تحقق له ما أراد فلم يعد حزيناً كالسابق لكنّه لم يكن سعيداً أيضاً، وفي اللحظة التي رآها فيها تقترب منه، كان وقع خطواتها القادمة نحوه مترافقاً مع دقات قلبه التي قالت له وبكل وضوح لن يستطيع أي بعد تغيير هوى القلب.

لقاؤها في ذلك اليوم ذكّره بيوم تعارفهما الأول، يومها أسرت قلبه بابتسامتها الرائعة ونظراتها البريئة، وفي اللحظة الأولى التي رآها فيها قال في داخله: أشعر بأنّني التقيتها سابقاً، كأنّني أحببتها عمراً قبل عمري. اليوم ومن جديد يعود له نفس الشعور، نفس اللهفة ونفس الإحساس المرهف. نفس السعادة لرؤيتها ونفس تسارع ضربات القلب.

خلال فترة إقامته باسطنبول حاولت نساء عديدات التقرب منه، وبما أنّه فقد الأمل من علاقته بتوليب وغمره الحزن والألم، حاول بدأ حياة جديدة لا وجود لتوليب فيها لكنّ قلبه رفض أن يكون ملكاً لامرأة أخرى. لم يستطع أن يحبّ أحداً كما أحبّها، وكلّما حاولت إحداهن التقرب منه كانت تعود للظهور

مجدداً في خياله وعقله وذكرياته وقلبه، وهكذا دخل الجميع إلى حياته كأصدقاء فقط دون أمل بالحصول على قلبه، وعندما أخبره آدم بقدومها إلى اسطنبول، لم يصدق ما سمع وتساءل لماذا ستأتي إلى اسطنبول؟ وكيف علمت بأنّه يقيم هناك؟. قال له آدم بأنّه هو من أخبرها وأعطاها رقم هاتفه. لم يفهم لماذا طلب منه آدم في ذلك اليوم ألاّ يرى توليب وانتابه فجأة شعور من الشك فسأله عن السبب، ولدى سماعه الجواب صُدم من كلامه، كان الغضب يملأ قلبه والدم يغلي في عروقه، لكنّه حاول كتمان مشاعره قدر المستطاع حتى انتهاء المكالمة.

كان غاضباً جداً من نفسه ومن آدم، ويلوم نفسه بشكل لا يصدق، فهو من وضعه في طريقها. كيف لم يفكر في ذلك؟ هل راهن على علاقته السيئة مع النساء؟ شعر أيضاً بالغضب من توليب وفكر كيف نسيت حبّه؟ وكيف وقعت في غرام رجل آخر؟. عقله قال له لقد انفصلتما منذ أربع سنوات، وليس من المنطق أن تعيش على حبّك طوال ذلك الوقت، لكنّ قلبه انتفض قائلاً: لكنّك فعلت، ألم تعش طوال السنين الماضية مخلصاً لحبّها ولم تسمح لأنثى غيرها بدخول حياتك؟.

جلس على الأرض وأخذ يفكر ماذا سيفعل لو أرادت رؤيته؟ لم يتوقع يوماً أنّه سيتردد في الذهاب إلى لقاء حَلم به منذ سنوات، لكنّه الخوف من

المجهول، الخوف من سماع أشياء يخشاها، أشياء بقي بسببها بعيداً عنها طوال تلك السنين. الآن تعطيه الحياة فرصة كي يعوّضها عن الحزن الذي سببه لها فهل سيتخلى عنها رغم حبّه الكبير لها؟.

بعد يومين من تلك المحادثة وصلته رسالة توليب، وأخبرته فيها بقدومها إلى اسطنبول ورغبتها في رؤيته، كما أنّها حرصت على تزويده فيها بكافة تفاصيل الرحلة وموعد الوصول، وكأنّها ترسل له برسالة خفيّة بين الكلمات. كان مترقباً لتلك الرسالة ويتمنى وصولها، لكنّه في نفس الوقت لايريدها أن تصل كي لا تضعه في خيار صعب. الآن أصبح الخيار بين يديه وهو من عليه اتخاذ القرار الحاسم، فهل ستنتصر أنانيته ويسير وراء حبّه من جديد، أم أنّه سيضحي بحبّه من أجل سعادتها.

لم يردّ على رسالتها في البداية أملاً في تغيير رأيها لتجاهله مبادرتها، لكنّه كتب اسمها على المفكرة الموضوعة أمامه على المكتب، ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم الذي وصلت فيه أكلته الحيرة ولم يستطع الوصول إلى قرار حاسم، يوم يقول أذهب ويوم آخر يقول لا.

في اليوم الموعود بدأ اسمها المكتوب على المفكرة يلاحقه، ولم يعلم كيف ستمضي تلك الساعات الفاصلة قبل وصولها. كان عقله في مكان آخر وهو غير قادر على التركيز، لذلك طلب إنناً من العمل وجلس يفكر.

ليلة البارحة كان قد حسم أمره وقرر عدم الذهاب لكنّه عندما رأى اسمها المكتوب على المفكرة في الصباح جبن أمام شوقه. أخيراً توصل لقرار يرضي العقل والقلب معاً، وأقنع نفسه بأنّه سيذهب ليراها في المطار لكنّه لن يدعها تراه. كان يشعر بشوق كبير لها ويريد رؤيتها، لذلك سيذهب ليراها ثم سيرسل لها برسالة يخبرها فيها بأنّه في رحلة خارج اسطنبول ولن يتمكن من لقائها. كانت الخطة جيدة بنظره، وبالفعل ذهب إلى المطار وانتظر خروجها لكنّه لم يعلم بأنّه يلعب بالنّار، وأنّ الكون يجّره نحو قدره من جديد.

اعتقد فرات المسكين بأنّ سنوات الفراق جعلته أقوى، وأنّه سيتحمل رؤيتها من بعيد لكنّه كان مخطئاً للغاية، فالقلب الخائن للاتفاق المبرم مع العقل، خفق لها كاليوم الأول، وفور رؤيتها تمرّد وأعلن العصيان، وعندها أحسّ بخطئه الفادح لقدومه إلى المطار، فالآن لا شيء يستطيع الوقوف أمام قلبه العاشق، والسّد الذي وضعه أمامه منذ زمن طويل لن يستطيع منع نهر الحبّ الجارف من التقدم. كانت مشاعره تشبه البركة الراكدة وحجرة واحدة ألقيت فيها كانت كفيلة بإيقاظها من سباتها.

وقف من بعيد يتأملها، ولاحظ أنّها تغيرت كثيراً وعلى الرغم من شعرها القصير والمتمرد مازالت ساحرة. بدا على توليب بأنّها تنتظر شيئاً ما، لقد رأى ذلك في عينيها القلقتين، كانت تبحث حولها برجاء وأمل. هل تنتظره يا ترى؟ هل لديها أمل بحضوره ولذلك أخبرته بموعد الرحلة؟.

بقي واقفاً بعيداً يراقبها حتى خرجت من المطار، وبعدها غادر إلى بيته وهو يشعر بالحزن الشديد، فذلك اللقاء القصير أعاد له الماضي كلّه، وقلبه المتمرد يريد الذهاب إليها الآن.

نام تلك الليلة وهو غارق في الحزن ولا يدري ماذا عليه أن يفعل، وفور استيقاظه في الصباح بعث لها برسالة ربما لشعوره بالذنب فقد كانت حزينة في المطار، وعندما طلبت رؤيته مجدداً لم يستطع الرفض، لكنّه أراد وقتاً لتنظيم أفكاره وإعطاء الفرصة لقلبه كي يهدأ، فهو لا يعلم بعد ماذا سيقول لها وكيف سيتصرف؟ لذلك أجّل لقاءه بها إلى اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي ذهب للقائها في الفندق، وعندما وصل انتظرها في قاعة الاستقبال. تقدمت نحوه ببطء وهو يراقبها بشوق سنين طويلة من الانتظار، آخر مرّة كانا فيها بهذا القرب كانت عندما ودّعها في سيدني. بدت ساحرة بثوبها الأحمر وكأنّ التاريخ يعيد نفسه مجدداً، فقد رآها للمرة

الأولى بثوب بهذا اللون. كانت مبهرة وكأنّها واحدة من تلك الأساطير القديمة التي قرأ عنها في الكتب سابقاً، بدا وكأنّ هذا اللون قد خلق لها فقط ولن يناسب أنثى آخرى بعدها، كانت ساحرة وسنوات الفراق زادتها بريقاً ولمعاناً.

أراد معانقتها لكنّه لم يتجرأ على الإنصات لقلبه العاشق، خوفاً مما سيحدث لو سمح لنفسه بذلك. سعادته في تلك اللحظة كانت ممزوجة بالخوف، فهو يعلم ماذا سيحدث إن تبع قلبه.

خرجا معاً وهو لم يكن الوحيد الخائف والحذر من هذا اللقاء، فتوليب أيضاً كانت كذلك. كانا يتجنبان ذكر أيّ شيء عن الماضي، ويتصرفان بمنتهى الطبيعية وكأنّهما أصدقاء فقط. تنفس الصعداء قليلاً عندما لاحظ تهرّبها هي أيضاً فهو ليس مستعداً بعد لخوض هذا الحديث، وبنفس الوقت يريد الاستمتاع برفقتها حتى لو كان هذا لبضعة أيّام فقط. كان يعلم بأنّه عاجز عن البقاء بعيداً عنها مادامت في اسطنبول، ولذلك سيفعل كلّ ما يستطيع كي يجعلها سعيدة في هذه الأيّام القادمة.

بعد ذلك أتى اليوم الذي قدمت فيه لزيارته في بيته، كان هذا كحلم بالنسبة له فلطالما تخيّلها في هذا البيت. كان سعيداً برفقتها وفي اللحظة التي

ضمّها فيها إلى صدره وهما يرقصان، شعر بعجز كبير تجاهها واستسلم أخيراً. أراد الاعتراف لها بأنّه مازال يحبّها ويريد أن يعودا معاً، لكنّ هاتفها رنّ فجأة وقاطعه فقرّر الانتظار لحين انتهاء المعرض، ولسوء حظّه أتى آدم وقلب كل شيء. شعر بغيرة شديدة من آدم وفكّر في الانسحاب، لكن بعد أن تحدث معه حول علاقته بتوليب، تراجع وقرّر القتال من أجلها، فحتى لو كان أمله ضئيلاً في الحصول على قلبها سيحاول حتى النهاية.

كانت هذه هي اللحظة الحاسمة لفرات فإمّا الآن أو أبداً، فهل ستعود توليب إلى حبّها الأول أم أنّها ستترك الماضي وتمضي نحو مستقبل لا وجود له فيه.

(20)

قطار القدر

الحبّ لا يتبدل ولا يموت، ورغم قساوة الفراق وعذاب الانتظار يبقى دائماً حارّاً كجمر، عاصفاً كتورنيدو، ومتفجراً كبركان، لا شيء يقف بوجهه أو يمحوه لأنّه شمس الوجود وبدونه نغدو تائهين .

كانت توليب مازالت واقفة قرب النافذة عندما سمعت صوت فرات يسألها مجدداً هل تحبّين آدم؟.

- لماذا تسألني هذا السؤال الآن؟ ألم تتركني قبل أربع سنوات؟.
- أنت تعلمين جيداً لماذا رحلت.
- ولكن ألا تخشى سماع هذا الجواب؟.
- لم أعد قادراً على العيش مع هذا الشك يا توليب. يجب أن أعلم الإجابة مهما كانت قاسية.
- حسناً ليكن ما تريد. جوابي على سؤالك هو نعم لدي مشاعر تجاه آدم.

شعر بغصّة في حلقه وآلمه قلبه لسماع تلك الكلمات، لكنّ توليب لم تكتفِ بذلك الحزن والألم الظاهر في عينيه الرماديتين وإنّما أمعنت في إيلامه أكثر.

- هل تألمت لسماع هذا؟ دعنا نكن صريحين لمرّة واحدة فقط، فلو لم آتِ إلى اسطنبول وأَطلب لقاءك، هل كُنتَ ستتّصل بي؟.
- توليب لا تكوني قاسية إلى هذا الحد أرجوك.
- أنا أقول الحقيقة فقط. ألم ترد معرفة الحقيقة؟.
- إن كان إيلامي سيريحك، ويعوّضك عن الألم الذي سببته لك فأهلاً به. أنا أفتح ذراعي بكل سرور لخنجرك حتى لو كان موجهاً نحو قلبي.
- هل تعلم كم تفاجأت عندما علمت بوجودك في اسطنبول؟
- هناك أمور لا تعلمينها يا توليب.
- طوال فترة وجودك هنا هل فكرت بي؟ هل خطر لك يوماً أن تتصل بي؟

بقي صامتاً فتابعت توليب لا أعتقد ذلك. أنت تهتم الآن فقط لأنّ هناك رجلاً آخر يهتم بي. كان فرات يستمع إلى كلام توليب والدموع تتجمع في عينيه، حاول تمالك نفسه والتحلي بالقوة لكنّه لم يعد قادراً على المقاومة، فانهمرت دموعه وهو يسألها بحرقة هل بقي لي مكان في قلبك؟.

أدارت ظهرها له كي لا يرى الدموع التي بدأت تتجمّع في عينيها وبقيت صامتة، لكنه تابع كلامه لها

- هل صمتك هو نعم أم لا؟ على الأقل قولي لي هل سامحتني؟.
- في البداية ظننت أنّ رحيلكِ هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لي في هذه الحياة، وسألت نفسي مراراً وتكراراً لماذا أنا وماذا فعلت حتّى أستحق هذا العقاب؟ لكنّني أدركت لاحقاً أنّ هذا البعد لم يكن عقاباً لي، وإنّما أمر لا بدّ منه كي أنضج وأصبح ما أنا عليه اليوم. بعد رحيلك دخل آدم إلى حياتي وغيّر الكثير من الأشياء فيها، علمني كيف أحبّ الحياة وكيف أكون أكثر جرأة وقوة، علمني كيف أكون مغامرة، وجعلني أكتشف أشياء كثيرة كنت غافلة عنها، لذلك يا فرات أنا سامحتك منذ زمن بعيد.
- هل تعتقدين حقاً أنّني لم أفكر بك خلال السنوات الأربع الماضية؟.
- بما أنّك لا تخبرني أي شيء لم أعد أعلم بماذا يجب أن أفكر؟.
- حسناً بما أنّنا كشفنا كلّ الأوراق اليوم، سأخبرك بكلّ ما تريدين معرفته.
- حسناً أنا اسمعك.
- أنا من طلبت من آدم البقاء قربك بعد رحيلي عن سيدني.

نظرت توليب إليه وكأنّها غير مصدقة لما تسمعه، وأرادت الكلام لكنّ فرات أوقفها بحركة من يده، وطلب منها الإنصات إليه أولاً.

- عدّتُ إلى عائلتي وبقيت معهم حوالي العام ونصف، لكن عندما علمت بكذبهم عليّ بخصوص مرض أمي قرّرت المغادرة، فقدّمت طلب نقلي إلى جامعة أخرى وعندما أتت الموافقة انتقلت إلى اسطنبول.

توقف عن الكلام قليلاً ونهض ليشرب كأساً من الماء، بينما توليب تنتظر بفارغ الصبر سماع القصة كاملة.

- رتّبتُ حياتي كي أعيش في اسطنبول، وحصلت أخيراً على الطلاق في العام الماضي.
- لكن لماذا لم تتصل بي خصوصاً بعد انتقالك إلى اسطنبول؟.
- في البداية كان من غير الممكن أن نبقى على اتّصال، فحتى لو أردت ذلك كنت أعلم بأنّك لن تقبلي بشيء كهذا، وعندما قدمت إلى اسطنبول وأصبح بإمكاني التحدث معك، لم أرد أن أكون أنانياً وأسبّب لك الألم مجدداً فقد كنت مازال متزوجاً حينها.
- ولماذا لم تفعل عندما أصبحت حرّاً؟
- كان الوقت قد تأخّرَ كثيراً على العودة.

- إذاً اتّخذتَ القرار نيابة عني مرّة أخرى وكأنّه لا أهمية لما أريده أنا، تماماً كما فعلت في الماضي، وقتها أيضاً أخفيت عنّي الحقيقة ولم تدعني أتّخذ القرار بنفسي، والآن تعود لذات الشيء. أنا لست امرأة ضعيفة وقادرة على مواجهة قراراتي بكل قوة، يا ليتك وثقت بي مرّة واحدة فقط في حياتك.
- المسألة ليست مسألة ثقة، أنا فقط لم أرد أن تتألمي. ثلاث سنوات مضت من دون أن نتحدث فكيف من الممكن كسر هذا الحاجز؟.
- عندما تحبّ بصدق لا تستطيع أن تبقى بعيداً عن الشخص الذي تحبّه مهما كانت الأسباب.

أحسّ فرات بألم كبير، لأنّ توليب تعتقد بأنّه نسيها ولم يهتم لأمرها، لذلك قرّر أخيراً فتح قلبه وإخبارها بكل ما أخفاه عنها طوال السنين الماضية.

- في الخامس عشر من أيّار قبل ثلاثة أعوام ذهبت في رحلتك الأولى إلى الهند، ثم في الرابع من تشرين الثاني من نفس العام ذهبت في رحلتك الثانية إلى أندونسيا، في التاسع من آذار قبل عام من الآن ذهبت إلى كينيا، وبعد مرور عام واحد على فراقنا كتبت تلك المقولة المشهورة من رواية جين اير لشارلوت برونتي " **أشعربأن هناك آلاف الخيوط الرقيقة التي تربط بيني وبينك، هذه الخيوط من السهل قطعها**

لوحدها لكنها تتحد معاً لتشكل حبّلاً محكماً يستحيل قطعه يمتد بين قلبي وقلبك، وإنّني أخشى إذا ما فصلت بيننا البحار أن لا يقدر هذا الحبّل على التمدد ويترك قلبي ينزف دماً". في عيد مولدك في العام الثاني لفراقنا كتبت على صفحتك أمنيتي في هذا اليوم هي نفسها أمنيتي في العام السابق عسى أن تجد طريقها إليّ في هذا العام، هل يكفي هذا يا توليب أم تريدين أن أستمر؟.

كانت توليب تستمع إليه وهي غير مصدقة. هل كان يراقبها من بعيد كظلّها؟

نهض فرات من مكانه وهو غير قادر على متابعة الحديث أكثر، وقال لها قبل أن يغادر أتمنى أن أكون قد أجبتك على جميع أسئلتك، استعدي الآن أرجوك لأنّ علينا العودة إلى اسطنبول.

غادرا قونيا وكلاهما حزين على ما جرى قبل قليل، كانت رحلة العودة مختلفة تماماً عن رحلة القدوم، فعندما قدما إلى هنا كانا سعيدين، أمّا الآن فهما حزينان ومتألمان. لم تتوقع توليب أن تسمع هذا الكلام منه فما انتظرته كان شيئاً مغايراً، وللحظة شعرت بالندم لأنّها قست عليه بحديثها. كان هو أيضاً غارقاً بأفكاره ومتألّماً لأنّه خسرها حقاً في هذه المرّة وليس

هناك أيّ أمل في عودتها إليه. كانت هذه السّاعات هي السّاعات الفاصلة قبل القرار الأخير.

وصلا أخيراً إلى المطار ومن هناك رافقها إلى الفندق، وقبل أن تغادر قالت له: شكراً لك على كل شيء فعلته من أجلي خلال هذه الزيارة، الآن حان وقت العودة إلى سيدني.

شعر فرات وكأنّ قلبه توقّف لدى سماعه هذه الكلمات. إذاً هذه هي النهاية، من جديد سيفترقان وهذه المرّة توليب هي الشخص الذي سيسافر.

من دون أن يشعر اقترب منها وعانقها للمرّة الأخيرة، كان عناقاً طويلاً وكأنّ الوقت توقف، كأن عقارب الساعة عادت إلى الوراء وتوقفت عند العناق الذي غمرها به يوم ودّعته في محطة القطارات. شعرت توليب بأنّه لم يتغير شيء بينهما، ومازالا حتى هذه اللحظة يجمعهما نفس العشق ونفس النبض ونفس القدر. في تلك اللحظة كانت قريبة منه لدرجة سمحت له باستنشاق أنفاسها، والشعور بحرارة جسدها النابض بالحبّ.

عطر وردته التي يعشقها باغته وأربك قلبه العاجز والمغرم، فضمّها لصدره بقوة أكبر وكأنّه يمنعها بذلك من الرحيل. أراد أن تمتلئ كل خلية من جسده برائحتها الأخّاذة. أخيراً وقبل أن يفلتها همس في أذنها بكلمات تعرفها جيداً

- مازال عناقك حنون ودافئ، ومليء بالحبّ كعناق أمي.

دمعت عيناها لقوله هذا، كانا وكأنّهما يعيشان نفس المشهد من جديد لكنّها في هذه المرّة لم تتعلق به كما فعلت في الماضي، وإنّما أفلتت قبضته وابتعدت عنه. أدارت له ظهرها ومشت من دون أن تلتفت إليه.

كانت تتداخل في رأسها آلاف الصور والأصوات، صوت عمّتها وهي تقول إنّه لا يستحقك، صوت ألين وهو تقول إنّه كاذب ومخادع، صوت آدم وهو يقول كيف تستطيعين مسامحته إنّه لا يحبّك بما يكفي، صوت فرات وهو يقول في الخامس عشر من أيّار قبل ثلاثة أعوام ذهبت في رحلتك الأولى .....، أخيراً صوت قلبها الذي يترجّاها كي لا ترحل، والذي يصرخ وبكلّ قوّة مازال فرات هنا وسيبقى دائماً.

توقّفت ووضعت يديها حول العقد الموضوع حول رقبتها، ثم قالت محادثة نفسها أعلم أن الجميع سيغضب مما سأفعله الآن، وأرجو أن يسامحوني على ذلك فأنا لا أستطيع العيش من دونه.

فكرت هل ستراه واقفاً بانتظارها لو استدارت؟ أخافها كثيراً أن تفعل ذلك ولا تراه لكنّها استدارت بكل الأحوال، فما هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث الآن؟ ألم تخسره منذ زمن بعيد؟.

اعتادت في الماضي، وفي كل مرّة يوصلها فيها إلى محطة القطارات أن تلتفت للوراء قبل النزول للرصيف لتودّعه للمرّة الأخيرة. هو أيضاً كان دائم الانتظار لها ولا يغادر قبل أن ترمقه بتلك النظرة الأخيرة.

اليوم أيضاً استدارت فرأته واقفاً ينتظرها بحزن، وفي اللحظة التي رأى فيها وجهها ابتسم لها وأشرقت ملامحه، وكأنّه كان يأمل حدوث هذا.

تقدّم منها وهو يقول مازالت لديك تلك العادة القديمة.

- وأنت مازلت تنتظرني.
- دائماً سأكون بانتظارك.
- هناك شيء أريد أن أسألك عنه قبل رحيلي.
- إنّني أسمعك.
- لقد قلت لي عندما سألتك لماذا تأخذني إلى قونيا، بأنّك تفي بوعودك فهل مازالت وفيّاً لوعدك الأول؟.
- كيف أتوقف عن حبّكِ وأنت امرأة تسكن جسدي من قبل أن توجد الحياة، امرأة تسحرني وتحتلّ تفكيري وأن أنساك يعني أنّ قلبي توقّف عن الخفقان. هل هذه الإجابة كافية؟
- نعم إنّها كذلك.

- وأنا مازال لدي سؤال لم أسمع إجابته بعد.
- ماهو؟
- هل بقي لي مكان في قلبك؟
- قلبي كان دائماً ملكٌ لرجلٍ واحدٍ، ولم يتغيّر هذا الشيء أبداً منذ التقيته.

لم يصدّق فرات ماسمع وكاد قلبه يطير من الفرح، إنّها مازالت تحبّه ولم تنساه، لقد أتت من أجله ورغم غضبها الكبير منه سامحته على كل شيء. كان يعلم بأنّه هو الوحيد القادر على إسعادها ولذلك لا يستطيع تركها لا من أجل آدم ولا من أجل أي رجل آخر، لأنّ توليب لن تكون سعيدة إلا برفقته.

أخيراً وبعد أربع سنوات من الفراق عانقها وقبّلها قبلة طال انتظارها، قبلة مليئة بالحبّ والشغف والشوق، فكلاهما كان يتوق إلى الآخر بجنون، ورغم الألم والغضب والأحزان لم يستطيعا التخلي عن هذا الحبّ، فالحبّ لا يتبدل ولا يموت، ورغم قساوة الفراق وعذاب الانتظار يبقى حارّاً كالجمر، عاصفاً كتورنيدو، ومتفجراً كبركان. لا شيء يقف بوجهه أو يمحوه لأنّه شمس الوجود وبدونه نبقى تائهين.

تابع فرات قائلاً لقد أخطأت عندما تركتك تغادرين المطار من دوني ولم أنصت إلى قلبي العاشق وبقيت بعيداً عنك طوال السنين الماضية.

- هل أتيت لرؤيتي في المطار؟ لقد انتظرتك طويلاً وعندما فقدت الأمل من حضورك غادرت.
- نعم أتيت وراقبتك من بعيد. كم كنت غبياً لعدم اقترابي يومها، رؤيتك وأنت تغادرين المطار وحيدة آلمتني كثيراً ولست مستعداً لعيش تلك اللحظات مرة أخرى.

وضع يديه حول وجهها بمنتهى الرّقة، ثم اقترب منها حتى تلامست جبهته جبهتها، وقال لها بصوت حنون ودافئ اليوم هو نهاية طريق أليم مشيناه سويّاً في الماضي، اليوم يا زهرة عشقي ستكونين جنّتي بعد أن كنت لسنين جحيمي، إنّ هذا هو القدر أليس كذلك؟

- نعم هذا هو قدرنا.
- تحبّينني رغم الألم والعذاب، وأنا بالقوة نفسها أحبّك. إنّ حبّنا المجنون هذا يعذبنا لكنّنا لا نستطيع التخلي عنه. أنت خُلقتِ لي وحدي وقد أَتيتِ لرؤيتي لأنّك عاجزة عن حبّ رجل آخر كما أنا عاجز عن حبّ امرأة أخرى، وكي أتخلى عنك يا توليب يجب أن أموت. هل أنت

مستعدة للمضي معاً نحو محطتنا المقبلة مهما كان الثمن؟ هل أنت جاهزة لمواجهة كل شيء من أجل هذا الحبّ؟.

كان فرات يحبّها بالقوة نفسها التي تحبّه بها فهل ستقدر على الوقوف في وجه الجميع من أجله وتمشي في هذا الطريق إلى النهاية؟ قرارها سيكون إمّا الآن أو أبداً.

قبّلتهُ توليب ثم قالت له بكل حبّ فلتكن محطتنا القادمة من اختيار القدر.

النهاية